

القسم الثاني
انصار چٹيان

الفصل الرابع

القسطنطينية

كان ميدان الأوجستيوم هو سرّة القسطنطينية ، وهو ميدان رحيب مرصوف بالرخام ، لا بد أنه في شكله العام كان يماثل ميدان القديس ماركو (Piazza San Marco) بالبندقية . وكانت تعلو في جانبه الشمالى قبة كنيسة القديسة صوفيا ؛ وكانت تقوم في شرقيه أطواق^(١) دار السناتو المصممة ، أما البناء المنخفض الذى يقع إلى الجنوب منه واشتهر بأبوابه الثقيلة المصنوعة من الحديد ، فيعتبر المدخل المؤدى إلى القصر الإمبراطورى ، ويقع وراه الجدار السامق للمقصورة الإمبراطورية ، وهو بناء كانت طوابقه العليا التى تطل على ميدان السباق فى الجهة المقابلة ، تكون المقصورة الملكية للإمبراطور ، وتتصل مباشرة بمبنى القصر بأروقة وسلم حلزونى . وفى الميدان يقع - بالإضافة إلى الصورة^(٢) ، وهى بناء معقود تبدأ منه جميع الطرق الإمبراطورية ، - عمود باسق من البرونز يحمل فوق هامته تمثالا شاحخا لحسنيين فى هيئة فارس فى عدته الحربية ، وقد أمسك بيده الكرة الأرضية ، وامتدت يده نحو الشرق ، كأنما يأمر البرابرة بآسيا ألا ينخطوا حدودهم . وكان « الميزى Mese » أو الشارع الرئيسى الذى تحف جانبيه السقائف والتماثيل والقصور الفاخرة

(١) ورد فى المعجم الوسيط ما نصه الطاق ما عطف وجمل كالقوس من الأبلية وجمعها أطواق وطباقان . (المترجم)

(٢) الصورة كما ورد فى المعجم الوسيط : ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق والجمع صوى وأسواء . (المترجم)

يمتد من ذلك الميدان نحو الغرب على امتداد شبه الجزيرة إلى الباب الذهبي ، وهو مدخل محصن وفق الطراز الرومانى يقوم فى الأسوار الضخمة التى تمتاز البرزخ .

ولو نظرنا من ناحية البوسفور إلى ذلك النطاق الضخم الممتد حول القصر ، الذى يضم المنحدرات بين ميدان الأوجستيم والشاطئ ، لوجد مرصعاً بمجموعات من القباب المذهبة والجواسق البيضاء والحمامات والشرفات والبيع (الكنائس) التى قامت بين الأشجار والنافورات وربط بينها مجاميع من درج الرخام .

وكان المدخل الرئيسى المؤدى إلى القصر يفضى من الأوجستيم إلى قاعة عظيمة ذات قبة ، مزينة بالنسيفساءات التى توضح حروب چستينيان وانتصاراته فى المعارك . ومن خلف تلك القاعة تقع غرفة العرش ، وكانت بعض السلام تؤدى من هذه الغرفة إلى قصر دافنى ، بغرفاته وشرقاته المطلقة الهواء التى تطل عبر المياه الزرقاء على قمم جبال بينينيا التى تكسوها الثلوج .

على أن قصورا إمبراطورية أخرى ، قامت لافى هذا الحى وحده بل فى خارج المدينة وعلى الشاطئ الأسوى .

وكانت مجموعة المباني المؤلفة من القصر والميدان والكاتدرائية وميدان السباق تعتبر نقطة البداية ، لما حفلت به حياة العاصمة من مواكب وأزمات . فإذا كان عيد رأس السنة ، وكان الإمبراطور تنازل فقبل منصب القنصلية ، ازدانت واجهات المنازل بالطنافس ، ورفرفت الرايات الحربية على سارياتها ، وغص الميدان بالمنصات الخشبية ، وازدحم بمجموع نقابات المدينة وأحزاب السيرك . وفى داخل القصر كان الإمبراطور يتلقى آيات الولاء من

مجلس السناتو . ويستمع إلى مدائح الخطباء ، وفي مقابل ذلك ينفحهم بسلال مملوءة بقطع الذهب وكثوس من الفضة أو يمنحهم لوحات العاج (Diptychs) التي تحمل رسمه . ثم تنفرج بوابات القصر عن المنادين الذين يتقدمون الموكب الطويل المؤلف من الموظفين ورجال البلاط والحرس يسرون صفوفاً عبر الميدان إلى الكاتدرائية ، وهناك يقدم الإمبراطور - بين أنوار الشموع الكثيرة - هباته على الهيكل المرتفع ، ويتلقى البركات وذلك قبل أن يمضي ، بموكب النصر إلى الكاينبول . وهذا الاحتفال لم يكن إلا واحداً من احتفالات كثيرة مماثلة . غير أنها ما كانت تقصر على البلاط وحده ، مثلما كان يحدث في مجلسه من الإنعام بالرتب أو الترقيات أو لاستقبال أمراء القوقاز أو الميرول ، أو تلقي المبعوثين والسفارات من فارس والحبشة . وعندئذ كانت المواسم البيزنطية تظهر في أبهى صور فخمتها . وكانت الجماعات الصغيرة من الأجانب الذين كان يرشدهم موظفون دائمون معينون لذلك الغرض ، يسرون ويبدأ بين صفوف من الجند طوال القامة ، كأنها صفوف متراصة من التروس والخطوات المذهبة والريشات الأرجوانية والحراب اللائاة ، حتى يبلغوا آخر الأمر الأبواب العاجية لغرفة الدخول . وتغيب ذلك فترة انتظار طويلة . وعلى حين بفتة ترفع الستور وتكشف للأعين منصة بالغة الروعة — يتجلى فيها الإمبراطور جالساً على عرشه بين النسرين يحيط به حراس في ملابس بيضاء لها ياقات مذهبة ، وقد جلس حوله أعضاء السناتو وعلية الموظفين في أرديتهم الحريرية . وبعد أن ينبطح السفراء على الأرض ثلاثاً ، يسمح لكبيرهم أن يقدم هداياه للإمبراطور قبل أن يأذن له بالانصراف في كلمات كريمة . ويلقى السفراء طوال مدة مقامهم إكراماً بالغ الحد ، ويعرض على أنظارهم بقايا الاهتمام كل ما في المدينة من مناظر شديدة الروعة .

ميدان السباق

وإذا كانت كنيسة القديسة صوفيا — كما قال بعضهم — ملكاً لله وكان القصر للإمبراطور ، فإن ميدان السباق كان ملكاً خالصاً للشعب إذ كان ميدان السباق محور الحياة البيزنطية ، نظراً لأن اتجاهه كان يحدد اتجاه كل من في الكنيسة والقصر . فهنا كان الناس يعبرون عما تبقى للشعب الروماني من حريات بما ينبعث من صيحات أحزاب السيرك ، وهي تطلب من الحاكم رفع المظالم أو إسقاط وزير مكروه من الشعب ، وفي هذا الملعب كان رندال إفريقية المنهزمون ، يساقون في أرجائه بين تهليل الظفر ، ويرغون على السجود بين يدي الإمبراطور ، على حين تهتز جنبات حلبة السوق بالتهليل وأناشيد النصر . وهنا أيضاً كان يحدث بين الفينة والفينة تنفيذ حكم الإعدام في أعداء الدولة أو التنكيل بهم .

وكانت المنطقة الوسطى من ميدان السباق يقسمها في الوسط صف من المسلات والعمد ، كان يرتفع حولها مقاعد رخامية بيضاء وتتسع لأكثر من ٦٠.٠٠٠ مشاهد . وفي الطرف البعيد من الميدان انتصب بناء ضخم منحرف فوق سقائف مقامة على أعمدة ضخمة فوق المنحدرات الدنيا . وفي منتصف الواجهة الجنوبية الطويلة قامت المقصورة ، وهي المبنى المرتفع الذي يدلّف إليه الإمبراطور من قصره ، وهو أشبه بمرساة بارزة يطل منها على الحشد الشائر من السكان دون أن يخشى شيئاً . إذ كانت المقصورة الإمبراطورية وما يلحق بها من حجرات ، من الارتفاع بحيث لا تبلغها قذفات الحجارة

ولا تتعرض لمجوم الجماهير^(١) . وكان يقف نحته في إحدى الطنف رجال الحرس والموسيقيون . أما خط النهاية الذى كان يعتبر نقطة النهاية والبداية أيضاً للمتسابقين العربات ، فيتألف من صف من مقاصير حجرية تحتلها الأسر الأرستقراطية البيزنطية ، وفي أسفل المقاصير غرف تفصل بينها حواجز وتنطلق منها العربات للسباق ، فتدور بشدة عظيمة حول العمود المخروطى — وهى الصرح الأثرى الذى يحدد الطرف الآخر للسباق ، ثم تندفع راجعة على الجانب الآخر من المحور المركزى (Spina) تحت صيحات جموع المشاهدين الهاهجين .

وحفلت الرحبات الفسيحة والسقائف المحيطة بميدان السباق بالسلالات والتماثيل الشهيرة ، المنقولة من روما أو المنزعة من مدن بلاد اليونان أو مصر وآسيا الصغرى والى كانت تلسم الآثار تعتبر فى يوم من الأيام من أجماعها التليدة . وكان بعض هذه الآثار من التماثيل الشاحخة التى كانت إمبراطورية الروم الشرقية البيزنطية مولعة بها ؛ وكان بعضها من تماثيل أباطرة الرومان فى هيئة الفارس . ومنها ما كان على الطراز الهللىنى * فى ألقى صوره ، غير أنه لم يكن منها إلا عدد قليل من إنتاج مثالبين كفيدياس وليسيبوس . وكان أهالى القرون الوسطى الميالون إلى الإيمان بالخرافات ينسبون إليها قوى سحرية ، وكانوا يستطلعون أسرار المستقبل فى الرسوم المهرى وغليفية المحفورة على الأعمدة المصرية .

وصهر الصليبيون الفرنجة برونز هذه التماثيل لتحويله إلى عملة ؛ على أن

(١) ومع ذلك فى الإمكان الدخول إليها عن طريق ميدان السباق كما تدل على ذلك فتنة نيقا .
• يفرق المؤرخون بين ما هو هللىنى أى مرتبط بالإغريق القدماء ولنتهم وفنونهم وبين ما هو هللىنى أى منسوب إلى حضارة اليونان المشوبة بشوائب أجنبية بعد عهد الإسكندر (انظر لترجم كتاب « الحضارة الهللىنستية ») (المترجم)

أحدهم أشفق على تمثال هرقل الذى بدا حالماً حزيناً وعلى تمثال هيلين الذى كساه الجمال الرضاء ، « وقد انفرج فيها كالزهرة وبدا كأنما يريد أن ينكلم ، بينما كانت ابتسامتها تسلب روح من يشاهدها . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يصور عينيها العميقتين ، وتقويس حاجبيها ورشاقة جسمها الممتع الجميل ؟ ^(١) » .

ومن الطاقات العليا لميدان السباق كانت العين تمتد فوق المياه الصافية لبحر مرمرية فى الجنوب ، المغطاة لجاته بأشرعة سفن قادمة من ثلاث قارات ، ثم تنتقل إلى ما وراء هذه المياه من أحراش آسيا الصغرى وبيوتها الريفية وجبالها البعيدة ؛ وإلى الشرق كانت تقوم قباب القصر وحدائقه المتدرجة ، والمضيق الضيق والكنائس والدور المقامة فى جانبه الأقصى ، كما يشاهد فى الصدر الأوجستيم الذى تقع فى خلفه قبة القديسة صوفيا الفخمة . وترى إلى الشمال الطرقات والميادين وقناطر السقاية وأقواس النصر بالمدينة والسقوف المتلاثة للكنائس التى لا حصر لها والأعمدة البرونزية العالية ذات الأفاريز الحلزونية ، وهى تعلو سطوح البيوت المتراسة ، ومن ثم تقتاد العين أماماً إلى خط الأبراج المربعة والأسوار الضخام والأراضى المترامية .

الخضر والزرق

على أن هذه المناظر الجذابة جميعها لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى النزاع العارم الناشب بين حزبي الخضر والزرق . ذلك أن أحزاب الملعب كانت مما ورثته الدولة عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ؛ وأصبحت بكل مدينة كبيرة

(١) نيفيتاس من شونز (Chones) ، ٨٦٤ .

من مدن الشرق تمثل أهم حقيقة في حياة سكانها المشهورين بسرعة الإثارة . وكان كل مواطن عضواً في أحد الحزبين اللذين اتخذوا مقاعدهما في جانبيين متقابلين من ميدان السباق ، وقد انشأ بالأردنية الزرقاء أو الخضراء ، وهما يتضرعان للقديسين بجمرة مبهلين بالنصر لحزبهم أو يصرخون بالإهانات لخصومهم . فتدفق في هذا المجرى العجيب جميع مشاعر الوطنية وكل ما كانت تزخر به المدينة المستقلة من ولاء على الجنس والطبقة جميع سموم العداوات التي كانت في الأيام الخوالي تستثير دم الإغريق بدم جميع العداوات الحزبية . بل تأثر بها كل شيء حتى الفنون نفسها ؛ فكانت التماثيل والشعر تشيد بجمال وجرة راكبي العربات مبعودي الجماهير . وكان غوغاء أنطاكية أو القسطنطينية أقل اهتماماً بانتصارات الجيوش الرومانية في المعارك الناشبة على الحدود السحيقة منهم بانتصار الأخضر أو الزرق . ومن المسير علينا تعقب ما ينطوي وراء نضال الحزبين المتنازعين من خصومة سياسية أو دينية . وكان كل من الجانبين يقذف الآخر دون تمييز بينهم الزندقة والخيانة والسحر أو مجاعة الفضيلة والأخلاق ؛ ولم تكن تلك التهم سوى المظاهر المتداولة في حملات السباب البيزنطي . على أن ما ارتبط به كل من حزبي الزرق والخضر بالمدن الكبيرة بالإمبراطورية من روح الزمالة الماسونية الخطيرة ، وما يثيره سباق العربات من الانفعالات الحارة التي قد تصل إلى فتنة مفاجئة ، بل إلى حد الثورة ، جعلت أحزاب السيرك قوة ضخمة في السياسة . وحفظاً لمصلحة الدولة كان لابد من إجراء تنظيم دقيق لشئونهم . ومن ثم عين على رأس كل حزب عدد كبير من الموظفين ، يتولى انتخابهم هيئة تقابل ما هو معروف الآن بنادى الجوكية ، يتألف من مئات من الأثرياء ، الذين يؤدون من الاشتراكات ما يكفي للإنفاق على مؤسسات التدريب وعلى السباق ، فضلاً

عما كان يجري في أثناء فترات الاستراحة من تحريش الكلاب بالدببة والألعاب
البهلوانية . وكان لهؤلاء الموظفين امتيازات وواجبات خاصة في مراسم البلاط ،
ولاسيما ما يتعلق منها بحفلات عيد ميلاد الإمبراطور وزواجه ، وكانوا مسئولين
كذلك عن حفظ النظام في ميدان السباق . وكان أتباعهم يكوّنون حرس
الشرف في المواكب الرسمية ، كما أن فصائل شرطة جند المدينة ، التي تتولى
ضبط الأمن بالعاصمة ، وتقوم بالدفاع عن كل ما يوكل إليهم حراسته من مختلف
أجزاء سورها ، كانت وثيقة الصلة بالمنظمات الحزبية . على أن أغرب ظاهرة
في هذه المنظمات جميعاً وإن لم يخل التاريخ من سابقة لها عند الرومان ، هي أن
الإمبراطور نفسه كان ينتمى إلى أحد الحزبين : وكانت نتيجة ذلك أن أحد
الحزبين كان يلقي الخطوة والإيثار ويسمح له بقتل خصومه أو إرهابهم
أو بتكوين جماعات من السفاحين (Mohocks) الذين يخنلون بنباهم المعجبية
ويثيرون من الاضطراب ما يجعل المسير في شوارع المدينة محفوفاً بالخطر ،
وعلى حين أنه اجتمع في الحزب الآخر عند كل أزمة جميع عناصر المعارضة
للبيت الحاكم ، سواء أكانت معارضة شخصية أم دينية أم عنصرية أم أسرية ،
وهي المعارضة التي تثيرها فيما يبدو البقية الباقية من شرارات الديمقراطية
الإغريقية التي كانت تومض في عالم لا يعرف إلا الاستبداد والحكم المطلق .

وكان أناستاسيوس يؤثر الخضر برعايته ، بيد أن چستين وچستينيان
درجا على نقیض ذلك . وعندما كان مركز چستينيان غير وطيء ، مضى
في التحيز لحزب الزرق إلى أبعد الحدود ، بل إن دور العدالة نفسها قد أفسدها
المشاعر الحزبية . حتى إذا اطمأن چستينيان في مستهل (٥٣٢) على ملكه ،
أصدر الأوامر إلى المدن الكبرى بضرورة إخماد كل اضطراب يصدر عن

أى من الحزبين . وكانت نتيجة ذلك أن أمر والى مدينة بيزنطة بإعدام سبعة من الخضر والزرقي ، اتهموا بالقتل فى أحد الاضطرابات التى وقعت حديثاً . ومن سوء الحظ أن جبل المشنقة انقطع مرتين : واستطاع جمع من الساخطين أن ينقذ اثنين من المحكوم عليهم ، وقسم الحزبان الالتماسات إلى الإمبراطور بالمعفو . فلما رفض الإمبراطور الطلب ، اتحد الحزبان ، وعندئذ بدأ الخضر والزرقي — مستخدمين كلمة السر « اقهر Nika » — الفتنة المعروفة باسم ثورة نيقا .

ثورة نيقا

ولم تنقضى بضعة أيام حتى تطورت الحركة متخذة شكلاً بالغ الخطورة . فقد أشعلت النار فى المباني المحيطة بالأوجستيم . وانحاز إلى الحركة سكان الريف الذين أثارته الضرائب الفادحة التى قررت عليهم ، فأصبحت فتنة الأحزاب ثورة شعبية . وطالب الثوار بعزل الوزراء الثلاثة المبتغضين إلى الناس . وجزع جستنيان لما حدث من اضطراب فأذعن لمطالب الثوار ، بل إنه ظهر بشخصه فى المقصورة ، وأقسم على الكتب المقدسة بأن يرفع المظالم وينسحب العفو العام ؛ ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . فانسحب إلى القصر مشيحاً بصيحات الاستهزاء والإهانة — ولم تلبث الثورة الشعبية أن تحولت إلى ثورة . ولقى الثائرون تأييداً من كثير من النبلاء الذين كانوا منذ البداية يبغيضون بيت جستين حديث النعمة ، وتوج ابن أخ لافاستاسيوس إمبراطوراً رغم إرادته ، واقتادته إلى المقصورة الجاهير الشائرة التى هرعت إلى ميدان السباق . أما الإمبراطور الحقيقى وهو جستنيان ، فصار محصوراً فى قصره وأضحى مركزه فى حرج . وكانت الشكوك تنجم على ولاء أعضاء

السناتو باستثناء من كان منهم من صنائع الإمبراطور وأصدقائه ؛ وكان الحرس في زرد ، فلم يكن الإمبراطور يستطيع أن يركن إلا إلى أتباعه الخصوصيين وإلى الجند من البرابرة الذين يخضعون لاثنتين من قواده . فيادر جستنيان إلى عقد مجلس عاجل واستعد للفرار . على أن الموقف لم ينقذه إلا ثيودورا التي كان لخطابها الشهير رنين الصدق والإخلاص — رغم ما أضفاه عليه بروكوبيوس من طابع ثومسيدبس ، إذ قالت : « على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فلن أركن إليه . وذلك أن من يلبسون التاج ينبغي ألا يعيشوا بعد أن يفقدوه . ولا أحب أن أعيش حتى أرى اليوم الذي لا يهتف فيه الرجال باسمي إمبراطورة لهم . فأنج بنفسك إن شئت يا قيصر ، فإن لديك المال ؛ والسفن في انتظارك ؛ والبحر خال من كل حرس . أما أنا فإني باقية هنا . عملاً بالمثل القديم القائل بأن الرداء الأرجواني هو كفن جميل » .

وتلى ذلك اتخاذ تدابير صارمة . وتقرر رشوة الزرق لينتخلوا عن الخضر ؛ وفي تلك الأثناء شق القائدان المواليان للإمبراطور طريقهما إلى ميدان السباق عنوة من أبواب مختلفة ، وأعقب ذلك إجراء مذبة رهيبة . ولم تنوقف المذبة إلا عند حلول الليل ، وأسفرت عن مصرع ما يزيد على ثلاثين ألفاً في ميدان السباق .

ولم يلبث إبناء إخوة أناسناسيوس النساء — أن لقوا مصرعهم ، إذ بلغ من خوف جستنيان منهم أنه لم يبق علي حياتهم ، وتقرر نفي عدد كبير من النبلاء . وكانت التدابير التي اتخذت — وإن خلت من روح الانتقام — كافية لضمان عدم تكرار ما من شأنه أن يفضي بأعضاء السناتو وأحزاب السيرك إلى القيام بالأعمال التي أوشكت أن تحرم الإمبراطور من عرشه . وعلى حين

أن مركز الإمبراطور توطد فعلا وزاد قوة ، فقد قامت على أنقاض الحى المهدم الممتد فيما بين سوق قسطنطين إلى أبواب القصر ، مجموعة من المائر الرائعة تتوجها كنيسة القديسة صوفيا ، التى تعتبر ، مع مجموعة القوانين التشريعية التى تحمل اسمه ، أبقى ما خلده جستنيان من آثار .

كنيسة القديسة صوفيا

وإن كنيسة القديسة صوفيا ، أى كنيسة الحكمة المقدسة ، قد أُعترف بها منذ ذلك الحين أنها « أجمل كنيسة فى العالم كله » على حد قول السيرجون ماندفيل . وقد أشاد بوصفها بروكوبيوس فى فقرة رصينة ، كما أن بولس المعروف باسم داعية السكوت ، وهو من رجال البلاط والشعراء البارزين ، استطاع فى قصيدته التى ألفها ، بمناسبة ما قام به جستنيان من افتتاح مبنى الكنيسة من جديد والتى امتزج فيها الخيال الشعرى والتفاصيل المعمارية الدقيقة ، أن يعرض صورة رائعة للكنيسة ، وأهم ما انعكس لديه عن بنائها من طابع وأثر ، وما امتازت به من الرقة والخفة البالغة الحد . فترأت قبتها كأنما هى مدلاة من السماء ، إذ ترابط فى الهواء - فى شكل يبعث على الدهشة - كل أجزائها ، وقد تدلى كل جزء من الآخر وارتكز على الأجزاء التالية . وهذا التأثير أظهرته فى الواقع تلك القباب التى لم تكتمل استدارتها ، والتى استندت عليها من الشرق والغرب القبة الوسطى الكبيرة ، وما اجتمع لها من تناسب وتناسق رائع بين كل ذلك ، وزاد فى هذا التأثير ما كان ينفذ إلى الكنيسة من ضياء الشمس وما يصدر من إشعاع هادئ عن الرخام المتعدد الألوان الذى كان يكسو الجدران والأرض . ويجتاز الداخل إليها أقبية تحيط بها ينابيع (١٠ - الصور)

وسقائف مقامة على أعمدة . فإذا تجاوز الداخل غرفة القربان المزدوجة بأبوابها التسعة ، تجلى أمام ناظره طول المبنى بأكمله ، أما الساحة المربعة الوسطى التى ارتكزت قبتها على أربعة أعمدة ضخمة انتصبت كأنها حائط صخرى قائم ، فيحف بها على الجانبين بهوان من الأعمدة من طابقين ومن خلفهما ارتصت مقاعد أعضاء البلاط ، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى . ووراء هذا المتسع كان يقوم منبر القراءة ، وهو يقف كجزيرة من العاج والفضة وسط بحردوار من الرخام المجزع بخطوط خضراء يانعة أو حمراء قانية ، وقد انتشرت عليه النجوم الذهبية أو تطايرت عليه جداول بيضاء كاللبن على سواد براق ، أو كأنها « مثل زهرة الترنيان الأزرق النبات وسط العشب ، الذى ينتثر عليه هنا وهناك شذرات من الثلج الأبيض » . ويتألف الطرف الشرقى من ثلاث حنايا ؛ احتوت الحنية المتوسطة على الهيكل الذى يحجبه حاجز الأيقونات الفضي الضخم ، الذى انتصبت عليه تماثيل الشهداء والملائكة بأجنحتهم ، وقد أحنوا رؤوسهم . وكان المذبح من الذهب الخالص تتدلى فوقه أسجاف حريرية تحمل صوراً أو رسوماً ، وما يعلو المذبح من مظلة هرمية الشكل ، وما يقع خلفه من منابر منحنية معدة للبطريرك ورجال الدين كانت تلتصق بالفضة المكفنة أبدع تكفيت وأتقنه . وفى الليل كانت مئذنت المصابيح المعطرة التى انتظمت ثريات ، أو التى صيغت بشكل سفن أو تيجان من الفضة ، تضيء كل جزء من أجزاء الكنيسة ، بل يسطع ضياؤها خلال فتحات القبة فتؤلف مشعلا يسترشد به الملاح الذى يجتاز التيارات المعاكسة فى البوسفور « وقد استبد به القلق وهو يتوقع - وقد شدت أطناب ساريتة - هبوب عاصفة من إفريقية » .

وبلغ فن العمارة المسيحية الذروة في كنيسة القديسة صوفيا ؛ فاشتهر به الشرق ، من لاهوت تجريدى ، تجسد فى الحجر . « فقام أحد يدخل الكنيسة للتعبد ، حتى يدرك أن هذا البناء الرائع لم يبلغ الا كتمال بقوة الإنسان أو مهارته بل بفضل من الله وتوفيقه . هناك يرتقى العقل سموّاً حتى يتصل بالذات الإلهية . وقد أحس أنه (جلت قدرته) لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك الدار ، بل كان لا بد أن يؤثر بوجه خاص أن ينزل المكان الذى اجتياه . »

أصول الفن المسيحى

وكما أن قبة تلك « الكنيسة الكبرى » التى نحلق عالية كأنها « برج شاخ » يمتد فى كبد السماء ويشرف على المدينة من على فإن الكنيسة نفسها فاقت فى الأهمية كل ما ظهر حتى ذلك الزمان من كنائس لاحصر لها . ومنها كنيسة الرسل المقدسين بما حوت من قبور الأباطرة ، والتى لم تقل كثيراً عن كنيسة القديسة صوفيا فى وفرة ما حوت من الزخارف ، كما أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت النموذج الذى اتخذته كنيسة القديس مرقس بمدينة البندقية . ففى كل أرجاء الإمبراطورية ، كانت تشاد المباني من جميع الأوصاف ، واشتهر كثير منها بتصميمات أصيلة أخاذة — ومن هذه المأثر السقايات والصهاريج بإقليم الجزيرة ، ومنها الجسور المشيدة من الحجارة عند التقاء الطرق بآسيا الصغرى فوق الجداول التى احتفرتها السيول المتدفقة من الجبال ، ومنها الحمامات والنافورات فى سورية ، ومنها القلاع الضخمة على أطراف إفريقية ، ومنها الأديرة المسورة فوق جبل سيناء ، ومنها الكنائس المنبثة حول أرجاء البحر المتوسط ، وعلى امتداد شواطئ بحر الأدرياتى إلى پارنزو ورافنا . وتسلبت فن العمارة البيزنطى فى أثناء القرن التالى بكل مكان

حتى بلغ روما ذاتها ، وبينما يمكن مشاهدة ذلك الفن ابتداء من قباب
پريجو (Périgueux) إلى عقود كنائس كييف المقبية (Cupola) ، ومن
آخن حاضرة ملك شلمان إلى واحات مصر العليا ، فإن مؤثراتها الزخرفية
وطريقة عرضها للأحداث والشخصيات المقدسة ، قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً
حتى بلغت إرلندة ونورنمبريا وألمانيا ، فيما جرى حملها إليها من التحف العاجية
والمنسوجات والصور والرسوم الصغيرة .

كانت أصول الفن المسيحي على الدوام موضع جدال حاد لا يخلو من التحيز
الديني أو الوطني . إذ إن المسألة اتخذت في الآونة الأخيرة شكلاً جديداً . فقد
أخفل ما كان سائداً من قبل من المقابلة بين الشرق والغرب ، وتغيرت طرق
معالجة المسائل بسبب المادة الضخمة التي توافرت ووضعت تحت الفحص
والموازنة والمقارنة . وعلى الجملة ، لم يعد أحد يعد التغيرات التي حدثت في
تلك القرون طوفاناً جالباً للكوارث يجتريف أمامه كل ما على الأرض من
معالم ، بل ينظر إليها على أنها روافد وتيارات عديدة متشابكة في مجرى مائى
متواصل المسير لا تقاس أهميته إلا بقوة الدفع الذي تنطلق به الروافد والتيارات
من خلال قنواتها جميعاً . ولا شك أن أشكال الفن المسيحي ، فضلاً عن روحه
إنما ترجع مصادرهما إلى الشرق ؛ ولكن لم تكن هذه هي المرة الأولى التي
يظهر فيها التأثير الشرقى . فقد دأب كل من نهر النيل ونهر العاصى على صب
مياههما في نهر التiber منذ عدة قرون خلت . فإن الإسكندرية ، وهي
مركز التقاليد الهلنستية في التشكيل والزخرفة والرسم المثالى لهيئة الإنسان ،
كانت على سبيل المثال ، المنبع الأصلي لما انعكس في المقابر الرومانية القديمة
من زخرفة . أما أنطاكية التي تمثل أسلوب الساميين الواقعي الذي يساند
ما كان لمثالى بابل وآشور من تقاليد عظيمة ، فقد علا نجمها وبرزت بعد أن

صارت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأصاب الفن المسيحي من التغيير ما يجعله يوافق الأحوال الجديدة. فما نجى في جصيات (Frescoes) المقابر الرومانية من البساطة في إظهار الفرح والحزن ، وما كان من رسوم آلهة الحب المتلاعب وصور المتوسلين والمرساء والسمة والجمامة ورموز الميلاد الجديد الأورفية ، كل ذلك حل مكانه ما اقترن بالمناظر التاريخية والعقائدية من رهبة وعظمة . فلم يعد المسيح فتى يونانياً رشيقاً ، ولا راعياً يحمل شاة ، بل صار ملكاً مؤلماً قديساً يحكم بلاطه الشرقي من ثنايا السحاب ، واتخذ صورة حزينة لرجل سأمى ذى لحية يسهم في آلام من لا حصر لهم من الشهداء الذين رسمت حكاياتهم بأوفى تفصيل على جدران الكنائس الباسيليكية^(١). وقد كان لهماثر قسطنطين الدائمة الصيت ، لاسيما ما شيد منها في بيت المقدس أثر فعال في كل من بناء وزخرفة الكنائس التي كانت تنشأ بكل إقليم من أقاليم الدولة ، كما أن المنمنمات (Miniatures) والنحف العاجية وتذكارات الحجاج قد نشرت في كل أرجاء الغرب الطرز والأشكال (الرسوم) التي تصور على سبيل المثال مختلف الرسل وأيام الخليفة أو نواحي التماثل بين العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس — وهي المادة التي يتكون منها فن المصور الوسطى .

المؤثرات الآسيوية

ويمكن وراء هذين المؤثرين التوأمين : مؤثرى أنطاكية والإسكندرية ، مؤثر ثالث أقدم منهما عهداً وأكثر غرابة ، ويرجع الفضل العظيم في إظهار أهميته إلى استرزجوفسكى (Strzowski) ، ويتمثل فيما كان لثقافات آسيا

(١) الكنائس الباسيليكية (Basilicas) كنائس فاخرة كانت تتخذ من دور المحاكم القديمة في العهد الروماني . انظر الحضارة البيزنطية . (المترجم)

البدوية من تقاليد واسعة الانتشار بما لها من أشكال سطحية ومن تصميمات شكلية لمساليح الكرم والزهور والحيوانات ، وما تتصف به من صفة تجريدية لاغشيلية (أى لا تهدف إلى تصوير الأشياء) . وكما أن البدو الرحل الذين كانوا يظهرون بغتة من سهوب آسيا التي لم تتغير على كرقرون التاريخ ، قد خلفوا طابعهم في الأقطار التي اجتاحتها ، فكذلك كان مؤثرهم الفني قوياً محسوساً على يد الإسكنديين والأتراك والعرب . على أن تأثيره امتد في ذلك الوقت^(١) خاصة عن طريق شمال فارس ، فانتقل قوياً إلى أرمينية ، التي تعتبر من أقدم كراسى المسيحية ، والتي اشتهرت بما ازدهر بها من الأسقفيات والكنائس والأديرة . وتأثر الفن السورى والقبطى أعقق التأثير بهذه الأشكال الآسيوية ، وعن طريقهما تأثر الغرب ؛ غير أن هذه المؤثرات الآسيوية اتخذت طوقاً أخرى للوصول إلى الغرب مباشرة . فالمعروف أن القوط أقاموا بسهوب جنوب روسيا زمناً طويلاً يكفى لأن يتذوقوا فيه ما ذاع رسمه عند الإيرانيين من أشكال الجواهر والحلى المتشابكة ، التي نشروها في أثناء هجراتهم التالية في شمال إيطاليا وغرب ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، حيث انتشر الطراز بين القوط الغربيين فضلاً عن الميروفنجيين واللومبارديين ، ومن الأمثلة الدالة على أثره تلك الحيوانات الغريبة التي تتبدى في بعض النحائث الرومانسية . ولعل الشكل التجريدى لذلك الطراز استهوى أذواق الشمالين المتقاربة مثلما حدث بإرلندة التي كان يعوزها فن الأشكال المنحوتة ، إذ لم يلبث دخول المسيحية أن أعقبه ظهور أساليب فنية زخرفية شرقية ، امتزجت بما

(١) على أن فن التصوير الأساسى الدائم بحجوب إيران مشتق من مصادر عراقية (أرض الجزيرة) وهالينسية .

في الأنماط السكتية من أشكال القواقع الحلزونية والأبواق ، وتآلف من ذلك ما اشتهر به كتاب المشبكات من تصميمات معقدة .

والفنان الإيراني حينما يتخذ صور أشكال الناس والحيوان والنبات ، لا يستخدمها إلا على أنها أجزاء مكونة لرسم زخرفي كما هو الحال في سجادة عجمية . وكانت رسومه مسطحة ليس بها شيء من إدراك التشكيل أو المنظور ، لا في التصوير ولا في النحت . فتقدير الأبعاد كان يجري تمثيله بجعل الأشكال في مناطق إحداها فوق الأخرى ، وكانت الألوان الزاهية توضع بعضها إلى جوار بعض دون تدرج في قوة اللون . وكان المثل الأعلى عنده هو الحرص على بقاء الخط المستمر ، الذي تظهره الألوان المتقابلة ، أو تعاقب الضوء والظل ، لاختطة متسقة تهدي النظر إلى بؤرة متوسطة . وهذه الخصائص ذاتها ، شاعت أيضاً في فن الإسكنديين وفن الشعوب التركية والمغولية . وإذا نحن نظرنا إلى التغيرات التي طرأت على الفن المسيحي ووازنا بين الباسيليكا الرومانية الباردة ، وسطوحها العارية وبنائها المنظم النسق ، ونقوشها البارزة الناطقة التشكيل وتيجانها الفائرة الحفر ، وبين ما كان في هذا الزمن من الكنائس الجزلة الوهاجة والفسيفساء والجصيات (الفريسكوهات) الزاهية الألوان ، وأشكال الشهداء جادة التقاطيع ، وما كسا كل سطح من رسوم عربية وحليات مخرمة ، أو زخارف رخامية ، أو تيجان اتخذت شكلها شكل « الداتلا » المنجمدة ، فلن يكون من العسير علينا دون الالتجاء إلى الإشارة إلى شواهد الأشكال المعمارية وإلى التحف العاجية والمنمنمات ، أن ندرك أهمية هذا المظهر الثالث للفن البيزنطي .

التجارة الهينظية

ولا شك أن اسم الفن « البيزنطى » له كل ما يبرره ، وذلك لأن المدينة العظيمة (القسطنطينية) كانت فى ذلك الأوان ملتقى كل هذه المؤثرات وبوتقتها . وهى أيضاً مركز التجارة . « فإلى موانئها كانت تغلغ كل السفن المشحونة بتجارة العالم يجدوها الأمل فى الربح ، بل إن الرياح نفسها كانت تعمل على جلب التجارة للماء أيدى سكانها بالتروات »^(١) فكانت الفراء والجلود تأتى إليها من جنوب روسيا وحوض الدانوب ؛ ولكن الشرق كان المورد الذى تستمد منه ثرواتها الرئيسية . فكان البلاط والطبقات العليا تستهلك مقادير ضخمة من الحرائر والتوابل وأخشاب العطور ؛ كما أن بيزنطة أصبحت فى نظر الغرب مدينة ترف سحرى عجيب عندما كان الإمبراطور يرسل هباته من المنسوجات الحريرية والجواهر الثمينة إلى ملوك البرابرة وكنائسهم .

وكان ثمة طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط . فأقدمهما عهداً وأقصرهما ، هو الذى استخدمته القوافل فى عبور الصحارى الكبرى بآسيا الوسطى ، وبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصغد تبلغ الحدود الفارسية فى مائة وخمسين يوماً . وبعد رحلة تستغرق ثمانين يوماً أخرى عبر فارس تبلغ القوافل نصيبين (Nisibis) وهى مدينة تقع على الأطراف الرومانية . فأما الطريق الآخر الذى أؤمن القوم فى استخدامه منذ ١٦٠ للميلاد ، فهو الطريق البحرى . وكانت جزيرة سيلان (سرنديب) هى السوق المركزية الكبرى ، التى يرد إليها - بحراً - الحرير والقطن وعود الهند والفلفل

(١) انظر بولس داعية الصمت ، ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .

والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الهند الشرقية . ومن هذه النقطة (سيلان) اتخذت التجارة إلى الغرب طريقين بحريين . أولهما — وهو أهمهما — كان يتخذ طريق الخليج الفارسي إلى مصبي دجلة والفرات وإلى الأسواق الكبيرة بالحيرة . وكان الطريق الآخر يدور حول بلاد العرب ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانئ اليمن على شاطئه الشرقي ومرافئ الحبشة في الغرب أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج ، وهي القلزم (Clisma) بالقرب من السويس وأيلة (العقبة Aila) على الفرع الشرقي . والواقع أنه لم يتم بزيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل ، شاهدوا حجر الجشت الذي يضارع في الحجم كوز الصنوبر وهو يتألق فوق قمة المعبد بجزيرة سيلان ، أو رأوا ملوك الهند بما لهم من جيوش جرارة وقطعان من الفيلة . وترددت الأقاصيص عن جزيرة الساتير ، التي هي جزيرة بورنيو موطن الأورانج بوتان ، كما أن المصادر الصينية تشير إلى التجار الغربيين الذين يهبطون موانئها . وقد أقنع بعضهم إزاء الساحل الإفريقي ، ورأى ما كان لقوافل التجار من مراكز منيعة ، وما كان يدور بينهم وبين السكان في داخل القارة من المفاوضة الصامتة . وذلك لأنه كما ينبتنا كوزماس : في خارج الخليجان الأربعة المعطى بالعالم وهي البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسي وبحر قزوين (الخزر) يحيط بالعالم بحر كبير ، امتلاً بالضباب القاتل والتيارات العنيفة ، وكل من مصدر خطر دائم على المسافرين . وحدث ذات يوم ، أن ظهرت بعض طيور الفطرس ، على مسافة غير بعيدة من زنجبار . وبدأت السماء تنثر بالخطر ، وأخذ الركب والملاحون يهتفون في رعب بربان الدفة أن يتجه بالسفينة إلى الميناء ، وأن يعود إلى الخليج ، لما تراءى لهم من أمواج المحيط . وتبتمهم طيور الفطرس الصخاب على ارتفاع كبير ، وهي علامة تدل على أن المحيط قريب منهم .

وروى كوزماس الراهب، وهو تاجر متقاعد من الإسكندرية قصصاً ممتعة يصح الاعتماد عليها عن رحلاته وعن سبوع البحر والزراعات وغزال المسك وجوز الهند وشجر الفلفل وغيرها من الأشياء النادرة . على أن ما كتبه في علم الكون لا يقل عن ذلك إمتاعاً ولكنه أقل جدارة بالثقة . وحقيقة أمره كما يعبر عنه جيبون يتلخص في أن : « هراء الراهب عنده يختلط بالخبرة الواقعية للرحالة » . فهو يعمد إلى الأساليب والوسائل التي لانزال مألوفة لدينا فيستخدمها في تفسير الكتب المنزلة تفسيراً يدحض بعض المبادئ الوثنية الضارة التي تزعم أن الأرض كروية ، وأن لكل جزء منها ما يقابله في الجهة الأخرى ، وعنده أن العالم مكون من صندوق مستطيل مؤلف من طابقين اتخذ نفس أبعاد تابوت العهد الذي أنشأه موسى « المعلم الكبير بوصف الكون » . أما النجوم فتحملها الملائكة ؛ وتقرب الشمس خلف جبل عظيم ويعتبر كوزماس نموذجاً طيباً لما شاع بين الرهبان من الأفكار والتأملات ؛ غير أن نظريته الخاصة لم تلق قبولا كبيرا .

وكان معظم التجارة العالمية في أيدي الفرس ؛ إذ إنهم يسيطرون على أسواق سيلان ويستمتعون هناك بامتيازات خاصة . وكان الملاحون الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر ، وكانوا يزورون كذلك الموانئ الشرقية . أما تجارة الحرير بأكلها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها ، وفي ذلك ما لا يخفى من الضرر . وهذه الحقيقة تحكت في سياسة جستنيان التجارية . وبذلت جهود لإنشاء خط القوافل الشمالى الذى كان يجتاز بلاد التركستان ، ويعبر القسم الشمالى من بلاد فارس ويسير حول بحر قزوين ثم يهبط إلى الطرف الشرقى للبحر الأسود . ولجأت الدولة إلى استخدام خطة أخرى هي أن تتولى بنفسها الصفقات

مع فارس . وعقدت معاهدة تجارية قصرت استيراد الحرير على مدن ثلاث على النخوم : كالينكيوم في إقليم أوسروئيني ونصيبين بأرض الجزيرة وأرتاكساتا بأرمينية . وفرضت عقوبة صارمة على التهريب ، وحدد القانون ثمن الحرير الخام الذى كان يتولى شراؤه موظفون من قبل الإمبراطور ، بينما تقرر فى الطرف الآخر من الرحلة وضع حد أعلى لأثمان المنتجات المصنوعة فى صور وبيروت . على أن هذه الإجراءات التى اتخذت لم تظفر بنجاح تام ، وذلك لأنه حدث فى بعض الأحيان أن فارس كانت ترفض البيع بالسعر المعروض ، فيتعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب . وكانت الحكومة البيزنطية تضطر فى النهاية إلى دفع السعر الأعلى ، ولكنها كانت تغتنم تلك الفرصة لجعل التجارة احتككاراً بيد الدولة .

على أن جهود جستنيان الأساسية ، كانت موجهة إلى تجارة البحر الأحمر . إذ إن الإثيوبيين سكان أكسوم اعتنقوا الكاثوليكية فصاروا من ثم حلفاء له . وساعدهم جستنيان فى استعادة سلطانهم على الساحل المقابل لبلادهم وأعفى به بلاد اليمن . وكانت تجارتهم الواردة من الداخل واسعة النطاق — تشمل البخور والأفاويه والزمرد والعاج — وحملوا الذهب والعبيد من أقصى الجنوب ؛ وكان بيدهم أيضاً زمام التجارة العربية وقدر كبير من الآسيوية . ولم يبذل جستنيان لهم من تكريمه ومساعداته إلا لغاية فى نفسه : هى أن تشتد المنافسة بين الحبشة وفارس على تجارة الحرير اللازمة للغرب . ولكن قبضة الفرس على أسواق الهند وسيلان كانت قوية متمكنة ، ولذا لم يكن لهذه المنافسة أثر كبير . على أن حادثاً مثيراً أدى إلى حل هذه المشكلة ، ذلك أن راهبين تمكننا من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين ، حيث كان القوم يحافظون

على سرها بكل تيقظ وغيره ، بأن أخفيا البيض في جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران . ولم تلبث سورية أن زحرت أرضها بشجر التوت ، ولم تعد الإمبراطورية بعد زمن قصير تعتمد على ما يرد من الصين .

وعلى الرغم من التحكم الشديد والرقابة القوية التي اتخذتها الدولة فضلاً عن الرسوم الكثيرة التي تقرر جبايتها ، فإن التجارة البيزنطية ازدادت ازدهاراً . فكانت سورية ومصر خلايا عاملة تعج بالصناعة الناشطة ، وكان البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه يمج بسفن التجار ، التي تجلب كل غريب معجب من الفاكة والجواهر والأقشة والأطايه ، كما تحمل أنواع الميناء المدهشة والوشى المونق والمصنوعات المعدنية الدقيقة الواردة من الشرقيين الأدنى والأقصى إلى موانئ أوروبا الغربية ؛ وكان الدينار البيزنطى (النوميزما) هو العملة الذهبية المتداولة بجميع أسواق العالم .

الحياة فى العاصمة البيزنطية

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نخطط للقارى أصول السياسة الإمبراطورية التى انتهجها جستنيان ، مستخدمين لذلك رمزاً هو تلك المباني الضخمة التى أحاطت بميناء الأوجسنيوم . واستكمالاً للصورة لا بد لنا أن نصف الحياة الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع البيزنطى . ومن هذه الطبقات النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية والذين اتخذوا لهم دوراً بالمدينة ومساكن بالريف وشغلوا وظائف فى إدارة الدولة والجيش والكنيسة ، واشتهروا بما دبروه من مؤامرات من أجل الوصول إلى السلطة ، وخاضوه من نضال من أجل الصدارة والتفوق وباطروج للصيد أو لسباق الخيل فضلاً عن

انجهاهم الأدبية وثقافتهم المنتقة . أما الطبقة الوسطى فتمثلها دوائر الجامعة بأساتذتها الذين تدفع الدولة مرتباتهم . ومدارس الحقوق والبيان التي اشتهرت بكفائتها ، وكانت وثيقة الصلة بجهاز الموظفين القائمين بالإدارة المدنية الذين يصور يوحنا ليداس فسادهم وتجزؤهم لقوى قربانهم بألوان قوية زاهية . وعلى هاتين الطبقتين فئة التجار وأرباب المصارف وأصحاب الدكاكين ، بما اشتهروا به من الاعتدال في حياة الترف والطباع الهادئة ؛ ولا مفر أيضاً من وصف الحياة العامة في المدينة بما حفلت به من الأبروشيات ورجال الشرطة والمطافئ والمحاكم والمدارس والمستشفيات وما حوت من أطباء مقيمين وعنابر منفصلة فضلاً عن ملاجي أيتام ودور الصدقات والمخابز العامة وموارد المياه والصهاريج والسقايات والمجارى . وزخرت المدينة بالميادين الرائعة والشوارع الفسيحة والسقائف وأقواس النصر المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع ، وغصت المدينة بالتماثيل والحوانيت التي تعرض للبيع ما لديها من حرائر زاهية الألوان كلهميب النار ، ومن مصنوعات معدنية براقه ، وازدحمت الشوارع الفسيحة بألوان مختلفة من الناس ، من نبلاء في عباةاتهم الثمينة وستراتهم ذات الأكام المطرزة بأجمل النقوش ، يسير خلفهم أرقاؤهم الذين ارتدوا القلانس والسترات القصيرة ، أو امنطوا صهوات جيادهم التي طرزت سروجها بالذهب ؛ ومن النساء في ثيابهن ومحرماتهن الزاهية الألوان أو المتبتلين في مسوح شبهاء وسوداء ، ومن الرهبان والحجاج ؛ والبغايا والمتسولين والنشالين ؛ والحراس والجند المرتزقة من الصقالبة والجرمان والهنون ؛ ونم تجار من سورية ومصر ؛ ومن المشعوذين والمنجمين والأطباء الدجالين الذين اتحنوا نواحي الشوارع مقرأ لهم ، ومن القصاص في الأسواق ، يروون قديم الأقاليم الشعبية من أسيا أو يقصون أحدث أمجوبة أو آخر نكتة ، يروونها مقترنة بأسماء العظماء

حتى باسم الإمبراطور وقسيمه في الحكم ، بينما اشتهرت الأزقة الضيقة الوعرة
الأنحدار بما يطل عليها من شرفات وبما حوته من دكاكين معتمة ، والمواخير
وهي تنحدر مؤدية إلى الميناء المزدهم — الذي يرتاده البحارة الأجانب
ويعتبر موطن الطاعون الذي يجتاح المدينة من حين إلى آخر ويقتل من سكانها
خمسة آلاف كل يوم . وعندئذ تسير الأشباح في الشوارع الخالية وتنفذ من
كل شيء حتى الأبواب المحكمة الرتاج ، وتصدر الأصوات الرهيبة التي تنحدر
الضحية من النهاية المقتربة .

على أن الكنيسة تمثل قطاعاً مستعرضاً يمتد في كل الحياة البيزنطية ، بما
اشتهرت به من تعدد نواحي النشاط ، ابتداء من البطريرك ورجال الكليروسه
والوعاظ بالكهناس الكبرى والمعترفين ، بدعة ذلك الزمان ، والقسوس العلماء
حتى الرهبان الفلاحين والزهاد الجائلين . وزخرت المدينة وضواحيها بأديرة
الرجال والنساء ، ومنها ما أسسه بل نزل فيه أحياناً نبلاء من أعضاء الشيوخ
مع حريمهم ، ومنها ما كان ملجأ يأوي إليه المحتاجون فضلاً عن الفارين من
وجه العدالة . وذلك لأن الأديرة جزء مكمل للدولة ، كما يبين ذلك تشريع
چستنيان . إذ جرى الإمبراطور هنا وفي كل مكان على ما كان لروما من نظرية
تقليدية . وإذ كان القيام على الوجه الأكمل بالشعائر المقدسة (Sacra) كفل
للجمهورية المحاصيل الجيدة (الخير والرخاء) ورد الأعداء عن أبوابها ، فإن
چستنيان أعلن أنه : « لو أن هذه الأيدي الطاهرة والنفوس المقدسة صلت داعية
للإمبراطورية ، تقوى الجيش ، ولازدادت رفاهية الدولة ورغدها ولازدهرت
الزراعة والتجارة بفضل رعاية الله وإحسانه الأكيد » (الإضافات القانونية
الجديدة ١٣٣ ، ٥) . ومهما غالينا في أهمية الدين في الحياة البيزنطية فلن نوفي

حقه . فإذا كان ما يجري بين الإنجليز دائماً من حديث إنما يدور حول الجو ، فإن حديث الناس في بيزنطة يدور دائماً حول اللاهوت . وإذا كانت الأزمات الداخلية تعتبر أزمات اجتماعية واقتصادية ، فإن الأزمات الداخلية عند البيزنطيين كانت عقائدية . وتعتبر حروبهم صليبية ، ويعتبر إمبراطورهم نائباً عن الله في الحكم . وفي أزمئة الهدوء والاستقرار ، كان للأديرة بما اجتمع لها من جيوش من الرهبان وحشود من الأتباع دور كبير في تكوين الرأي العام . وكان للنساك العموديين الذين اتخذوا مقارم على رؤوس الأعمدة تأثير عظيم على السكان ، وكان الأباطرة يستجيئون لمطالبهم ويلتمسون نصيحتهم . وكانت الكنائس تزدهم إبان الشدائد بالمبتهلين الضارعين ، وإن العذراء نفسها لترى وهي تدافع عن استحکامات مدينتها المقدسة .

وكانت بيزنطة بحاجة ماسة إلى عدتها الروحية جميعاً . ذلك أنها تعتبر أساساً مدينة يسهل حصارها ، وكان ما يترتب على توقع الحصار من ثائرة مكتوبة يتجلى دائماً في أنجاه سكان المدينة ونظرتهم إلى المستقبل . ففي كل مكان تذيع الطيرة ونذر التشاؤم ؛ فالنماثيل الوثنية تتحدث أو تسبح بالعرق ، وتتنبأ النقوش القديمة بالمصائب الوشيكة الوقوع ؛ والأيقونات والآثار المقدسة تشفى المرضى وتدرأ سوء الحظ أو تزيج العدو اللدود بما يصيبه من موت مفاجئ . وتنشر الشائعات الخارجة عن كل معقول ؛ فالإمبراطور ساحر ، وهو يمشى في الليل بغير رأس وزوجته الملكة تلبسها شيطان . ويجن جنون السكان لما يحل بهم من زلازل وطواعين ؛ فهم يحملون متاعهم ويدفنون في جوف الأرض ما غلائنه من أشياءهم ثم يندفعون في الطرقات . والعدو قريب منهم دائماً ؛ وعلى مسافة تقل عن ثلاثين ميلاً

يقوم السور البرى العظيم ، الذى ظل الناس موقنين أمد فترات طويلة من الزمن أنه ليس من الحكمة المخاطرة بتجاوزه . وكمن جماعات خرجت للصيد ولم تعد عند المساء ؛ وكمن قرية ودير وبيت ريفى حول العاصمة اشتعلت فيه النيران فى أثناء الغارات المتعاقبة . وما القسطنطينية إلا برج يمتد بارزاً فى آسيا ، معرضاً لموجات الحشود البربرية التى تتوالى عليها من السهوب العظيمة أو الفيا فى العربية .

وقد اتخذت القسطنطينية فى منمنمات المصور الوسطى صورة مدينة ترتفع فيها الأبراج تحت اسم مدينة القياصرة عند الصقالبة وميكليجارث^(١) عند الشماليين ، فهى فى خيال الغربيين ، يضرها ضياء الشمس . غير أنها من وجهة النظر الشرقية ، تعد دائماً مصدر النحس والشرور . فإذا عصفت السماء التمت القباب ، وامتلات الأسوار بالحراب ؛ ووقفت أمام التحصينات صفوف طويلة من خيام الآقار ، وأخذ الفرسان العرب يثيرون الرعب فى السهول المقفرة . وتضيق فى كل آن حلقة الخناق البربرى القاسى ، وهم يتحرقون شوقاً إلى انتهاب « المدينة التى تهفو إليها قلوب العالمين »^(٢) .

(١) انظر هـ . ج . ولز « معالم تاريخ الإنسانية » للمترجم ج ٣ ص ٨٤٢ من الطبعة الثانية .

(٢) انظر قسطنطين الرودسى فى (Rev. des. Et. Grecques) ج ٩ (١٨٩٦) . ص ٣٨) .

الفصل الخامس

جستينيان والغرب

توفي جستين في (٥٢٧) وخلفه في الحكم جستينيان ابن أخيه ، بعد أن ظل سنوات عديدة الحاكم الفعلي للإمبراطورية . كان جستينيان رجلاً متوسط القامة نحيل الجسم ، وكهلاً في منتصف العمر يغلب الصلع على رأسه وإن بقيت فيه شعرات موجة وخطها الشيب ، وله وجه أحمر مستدير ، واشتهر بالبشاشة ولين الجانب وهدوء الطبع . كان شديد الدأب على العمل ، بالغ الاهتمام بتفاصيل الأشياء ، درج على أن يعد خطط ما ينفذه من حملات إلى الجهات النائية ، وما تجرى عمارته من القلاع بإفريقية ، وإعداد البرنامج الدقيق لكل ما يمارسه القنصل من ألعاب ، وتنظيم كل ما يدور من جدل حول وجوب الصيام في عيد الصوم الكبير . وغلب على سلوكه العام الوفاق والاعتزان وضبط النفس ، غير أنه يفتقر في بعض الأحوال إلى المبادرة والإقدام ، إذ ظهر ضعفه الشديد في أثناء ثورة نيقا ، وأكبر شاهد على ما اتصف به من التردد ما كان لثيودورا ويوحنا القبادوقى عليه من تأثير — فإنه كان شجاعاً ولكنه متوسط الذكاء

Une âme de valeur plutôt médiocre على حد قول ديبل .

ومع ذلك فإن ما أنجزه هذا الرجل من جلائل الأعمال قد أكسبه لقب جستينيان الأكبر . ويذكر له التاريخ أنه المشيد لكنيسة القديسة صوفيا وواضع أساس القانون الأوربي ، وهو الذي استرد الممتلكات الرومانية من

عمودى هرقل^(١) إلى نهر الفرات. فالسيادة الرومانية (Imperium Romanum) عنده هي سر نجاحه. إن ذلك الفلاح المقدونى استطاع حين اتشح بالأرجوان، أن يضع أسس العظمة التى اشتهر بها أولئك الحكام السكاة، الذين بذلوا من الجهود الفاتكة ما أبقي على الإمبراطورية طوال خمسة قرون^(٢). وكانت تركز فى يد القابض على زمام الإمبراطورية جميع سلطات الكنيسة والدولة والقانون والجيش والإدارة. كان مسئولاً عن رفاهية رعاياه، سواء أكانوا فى الأقاليم الشرقية من الدولة أم فى الأقاليم الغربية، التى نيط الحكم فيها فترة من الزمن بملوك الجرمان، باعتبارهم نواباً عنه. كان الحامى للسكائوليك جميعاً داخل الإمبراطورية كانوا أو خارجها، وكان العدو اللدود لكل المراهقة والوثنيين. هذه هي النظرية التى تنطوى عليها كل أعمال جستينيان. إذ إن جمع القانون الرومانى إبقاء على التعبير عن الحضارة التى تخلفت عن أيام الجمهورية، وتعزيز المركز الدستورى للإمبراطور بوصفه مصدراً للقانون (Fons iuris). وكانت المراسم المحكمة التفاصيل داخل البلاط ترفع من شأن المنصب الإمبراطورى، وإن النقوش المدونة على مبانيه التى توافرت بكل أرجاء الإمبراطورية وإطلاق اسمه على مدن عديدة لتسجل للأجيال التالية عظمة جستينيان وبجده. ورأى الإمبراطور أن لا بد من تطهير الجهاز الإدارى، وليس ذلك فقط لأن الإمبراطور يدين لرعاياه بواجب حسن الرعاية، بل أيضاً لأنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أداء الضرائب الفادحة التى لا بد

(١) عمودا هرقل هما الصخرتان العظيمتان اللتان تحرسان مدخل البحر المتوسط وهما جبل طارق وجبل سبتة (المترجم)

(٢) انظر ف. و. بسل فى (Constit. Hist. of the Rom. Emp.) ج ١ ص ٢١٧. «فأما الماهل نفسه فإنه عند توليه العرش، فقد السكثير من شخصيته كثرية الأهواء، وأصبح وريثاً لروما وبجود مفسر بسيط لسياستها الخالدة على الأيام».

من إنفاقها على مشروعاته التوسعية . وفي قمة هذه المشروعات ، ما كان يراود
جستينيان من حلم كبير ، وهو استرداد أقاليم الإمبراطورية الرومانية —
إفريقية وإيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن غالة وبريطانيا . ويضطر الإمبراطور
إلى إهمال تخوم الدانوب والحدود الشرقية ، إذ يسحب منها الجنود لتقوم
بالحملات في الغرب . وينزل سوط الاضطهاد والنفي بإقليمى مصر وسورية
صاحبتى مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) فينفر قلوب الناس
فيهما منه ، على حين يمد بعونه البابوية وكاثوليك إفريقيا وإيطاليا .
وتنحط الولايات بكل من الشرق والغرب بما فرض عليها من ضرائب
لا تطاق ابتغاء تزويد الدولة بالمال اللازم للجيش والقلاع ، وفضلاً عن
ذلك يزحف على الدولة من جديد الفساد والرشوة وابتزاز المال تحت ظل
إفلامها . ومن اليسير أن نوضح ما شغل البلاد حتى نهاية حكمه الطويل من
سوء حال : حيث فرغت الخزائن وتضور الفلاحون جوعاً وتضاءلت
الجيش وأخذ الغرب ينفصل عن الدولة جزءاً جزءاً ، والشرق يتهدد ويتوعد
وتجردت الإمبراطورية من كل وسائل الدفاع بينما إمبراطورها الشيخ الفانى
لا يعنى إلا بالمنازعات اللاهوتية ، كما أنه من اليسير كذلك القول بأن سياسة
جستينيان جلبت الكوارث على البلاد ، وأن موارد البلاد لم تكن لتكفى
إلا لحماية حدى الدانوب وفارس . ذلك كله حق لا نزاع فيه ؛ ولكن ينبغي
ألا يفتب عن بالنّا أن جستينيان لم يحمل هنا من صفاته وخلاله إلا العيوب
والمساوى . ذلك أن « عصر بيزنطة العظيم » الذى حفر لها أثراً خالداً على
قوانين أوروبا وفنونها ، إنما يرجع إلى أفكار جستينيان عن الإمبراطورية
الرومانية التى اقنضت استعادة الغرب ، وزعامة الكنيسة الكاثوليكية ،
فضلاً عن وضع القانون ، وإنشاء كنيسة القديسة صوفيا .

الإمبراطورة ثيودورا

والإمبراطورة ثيودورا تمثل أعجب تقيض لزوجها . اشتهرت بحب الترف والتعالى والفطسة وحب السيطرة والميل إلى الانتقام ، وكانت بعيدة النظر لا تمحل بالمثل والمبادئ ، فسيطرت باستمرار على تفكير جستنيان وقراراته عن طريق الإقناع أو بالتآمر والدسائس . ويمكن التعبير عنها بلغة عصرنا الحديث بأنها امرأة واقعية وأنها ممن يعتقدن في العمل المباشر ، وأنها قوة نافعة تقابل ما عرف عن جستنيان من الميل إلى التوسع ، ومن الخطط التفصيلية المحكمة التي يرسمها على الورق . ومن المستحيل أن تقرر مدى الصدق الذي يمكن وراء الفضيحة التي يرددها بروكوبيوس بإسهاب ولغة عظيمة في كتابه « النوادر Anecdota » . وكيف أن لها ابناً غير شرعي ، وكيف كانت تهتم بكل ما يتعلق بالانتجار في أعراض النساء ، كما أن ميولها نحو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح تتفق دون ريب مع الحقائق الرئيسية الواردة في القصة بأنها كانت بغيا في بيزنطة ، ثم في الإسكندرية فأنطاكية ، حيث وقعت تحت سلطان زعماء ذلك المذهب . ولعل في إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم ، وفي الوفاة المتعمدة التي كانت توجهها إليهم ، تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التي لقيتها من أبناء طبقتهم .

ظلت ثيودورا حتى وفاتها في ٥٤٨ هـ تشارك جستنيان فعلا حكم الإمبراطورية . وكان ذوو الخطوة لديها هم وخدم الذين تولوا مناصب ولاية المدن وقادة الجند والبطارقة والبابوات . أما أعداؤها فكانوا يمزنون أو يقضي عليهم ؛ بل إن يوحنا القبادوقى نفسه ذا القوة والسلطان ، لقي جزاءه

آخر الأمر . كانت تمتلك ضياعاً عظيمة ، وتحصل منها على دخل ضخم ، تمكنت بفضلها من إعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، بل لقد كانت يبلغ بها الأمر أحياناً أن تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور وعلمائه دون أن يفوتها مع ذلك أن تصالح جستنيان وتسترضيه فيما بعد . ولعل أهم أعمالها وأبرزها نفوذها الهائل على السياسة الشرقية . ومن ثم فمن الطبيعي أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزية الآخذة بمذهب وحدة الطبيعة ، وبلغ بها الأمر يوم أُدبل من تلك العقيدة وتعرضت هذه الكنيسة للاضطهاد على يد بيزنطة ، أن آوت إليها قساوسها ورهبانها ؛ ولكنها كانت أوضح من جستنيان إحداً كلاً للخطر السياسى الذى تعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية آسيا وسورية ومصر إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها . وبفضل مشورتها انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات خطة التسامح والتنازل التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

فتح إفريقية

وبدأ فتح الغرب فى (٥٣٣) عندما أقلع بليساريوس أبرز قواد الإمبراطورية إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف من المشاة وما يقارب خمسة آلاف من الفرسان . وذهب معه المؤرخ بروكوبيوس ناصحاً ومشيراً ، فترك لنا رواية تفصيلية عن الحملة . وكان السبب الذى اتخذ ذريعة للحرب ، هو أن هيلدريك الملك الوندالى الضعيف ، الذى كان يميل إلى بيزنطة والكاثوليكية قد نجاه عن العرش جيلير ، الذى كان يمثل الحزب المعادى لبيزنطة . وظهرت حجة أخرى مماثلة عندما حان غزو إيطاليا ؛ وامتدت المماثلة والمشابهة أيضاً إلى سير القتال . ففى كلتا الحالتين ، تبين أن الانتصارات السريعة

الأولى ليست ثابتة دائمة ، فلم يكتمل الفتح إلا بعد سنوات أشد فيها القتال. اضطراباً وارتباكاً . ففي إفريقية ، كان كل شيء في صالح خطة جستنيان الجريئة. فإن أسطول الوندال وشطراً كبيراً من قواتهم قد توجه قبل فترة وجيزة إلى سردينية لقمع فتنة نشبت بها . فهبطت الجيوش البيزنطية دون صعوبة على الساحل الإفريقي وزحفت على قرطاجة متخذة طرقاتاً ظلية ، وهي تمسك ليلاً بين حدائق ذات بهجة . واستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . وكانت قوات الوندال تتألف من الخيالة الخفيفة ، والواضح أن الخطط الحربية السليمة تقضى هنا بالالتجاء إلى حرب العصابات إزاء خيالة خصومهم المدرعة ومشاتهم بطيئة الحركة . ولكن الملك جيليسر أثر الاشتباك مع أعدائه في معركتين حاشدين . وانتصر بليساريوس في كل من المعركتين رغم ارتكابه أخطاء خطيرة ، ولم ينقض زمن طويل حتى كانت قرطاجة في قبضة يده ، وحتى كان الملك الوندالي الذي جعل منه بروكوبيوس شخصاً رومانسياً ، متقلب المزاج عجيباً ، قد سلم نفسه لينقذ أتباعه من مكابدة الآلام . وبدأت الأمور وكأنما قد انتهى كل شيء ؛ فترك بليساريوس جيشاً صغيراً لاحتلال البلاد . ثم عاد إلى بيزنطة يتمتع نفسه بما حازاه من النصر ، وقد حمل معه نبلاء الوندال ، الذين اتخذ منهم كتيبة من الفرسان رابطة على الحدود الفارسية . واتخذت شتى الوسائل لإعادة الأحوال القديمة بإفريقية إلى نصابها . فأوثر رجال الدين الكاثوليك بكل حظوة ورعاية ، بينما تعرض للاضطهاد الدوناتيون والأريوسيون والوثنيون . وتقرر أن يسترد أصحاب الأملاك من الرومان أراضيهم ومزارعهم ؛ ولكن الدعاوى القانونية التي مضى عليها قرن كامل كانت تنطوي على صعوبات خطيرة . يضاف إلى ذلك أن التدمير مالم يلبث أن

ظهر عندما نجلى للناس أن كل ما يؤدونه من الضرائب ويسهمون به في إيرادات الإمبراطورية ، هي السبب الرئيسى في اهتمام جستنيان بهم .

على أن الأيام كانت تختزن للولايات الإفريقية متاعب بالغة العنف . فبينما كانت الميداليات والنياشين تصنع بالقسطنطينية ابتهاجاً بالفتح ، وتتردد في أرجاء ميدان السباق أناشيد النصر ، كانت تهدد قوة الرومان بإفريقية هجمات شيوخ البربر ، الذين دأبوا على الخروج من صياصيمهم الجبلية في غارات للنهب والتخريب . على أن سولومون القائد البيزنطى نجح آخر الأمر في ردم بل إنه تعقبهم في التلال ، غير أن خطط القتال عند البيزنطيين (وهم قوم كانوا يحاربون دائماً وفق قواعد معينة) لم تكن صالحة لقتال هؤلاء الخيالة الخفاف والمغيرين الذين يركبون الإبل . وظاهر أن الدروع الثقيلة التى كانت لدى الجيوش الرومانية لم يكن الغرض منها إلا الدفاع لا الهجوم ، وترتب على التوسع في استخدام القسى ، أن اشتد عكوف الرومان على القتال من مسافة بعيدة ، وهى حال لم تعد عليهم — بطبيعة الحال — بأى تحسن فى روحهم المعنوية . فداع المصيان بين الجند وتوالت حوادث التمرد ، حتى لقد اضطّر القائد العام فى بعض الأحيان إلى الفرار لينجو بحياته . غير أنه تعاقب على قيادة الجيش الرومانى من الأبطال أمثال سولومون وجرمانئوس ويوحنا التروجلي ما هياً للدولة الرومانية أن تنقلب على تلك الأزمات ، وبفضل ما هو معروف بين شيوخ البربر (Moors) ، من الشقاق بسبب ما تفشى بينهم من عداوات وثورات دائمة ، لم يتيسر لهم القيام بعمل متحد ، ولذا فإن السلطة الإمبراطورية استتب لها الأمر بصورة مستديمة فى (٥٤٨) وأخلت إلى الراحة آخر الأمر الأقاليم التى تعرضت للنهب والخراب .

ولإن بروكوبيوس ليروح في فقرة قوية وردت في كتابه «التاريخ السرى»
ينبى على فتح إفريقية ، أنه تكاف على حد قوله خمسة ملايين من الأنفس
ولم يؤد إلا إلى فقر البلاد وخلوها من السكان وجعلها فريسة لغارات البربر
وتمريضها للضرائب الفادحة الطاحنة والاضطهاد الدينى والعصيان العسكرى .
وهناك من الدلائل ما يحملنا على الظن بأن في هذه الصورة شيئاً من المبالغة .
فالخرائب الكثيرة المتخلفة عن المدن الفاخرة التى لا تزال باقية إلى اليوم
بتلك المنطقة تشهد - بما حوت من أسوار وسقايات يرجع الكثير منها إلى تلك
الفترة ، - بما كان عليه جستنيان من بعد النظر . ولا شك أن قلاع الحدود
تسترعى الاهتمام لا فى حد ذاتها فحسب باعتبار ما تعرضه من مظاهر القلاع
فى ذلك العصر ، كالخندق والحصن والفناء والأبراج الجانبية الواقعة للجناح
وفتحات الرماية - وكلها ترتبط عادة باستحكامات العصور الوسطى ، ولكنها
أيضاً تسترعينا باعتبارها جانباً من نظام دفاعى ضخم يمتد إلى منحدرات جبال
أوراش ومرتفعات نوميديا ، وفى مناطق مسورة يلوذ بها الفلاحون فى أثناء
غارات البربر . ولا تزال الكنائس والأديرة الفسيحة الواقعة فى داخل البلاد
تحتفظ بطراز الباسيليكة الرومانى الذى تزينه الزخارف البيزنطية ، على حين
يغلب التأثير اليونانى فى المناطق الساحلية، كما أنه ترك آثاره واضحة على التيجان
الرقية للأعمدة والزخارف الجانبية . أما الأرضيات المصنوعة من الفسيفساء
فإنها تصور بألوان مشرقة انفعالات ميدان السباق وأزياء الزمان ، ويتجلى
نشاط الكنيسة فى شدة ازدهار المجامع الكنسية ووفرة الأدب أعنى المؤلفات
المتعلقة بالمناظرات الدينية . وتدل البقايا الكثيرة للضياع وأعمال الرى ومعاصر
الزيت ، على ما اشتهرت به البلاد من الخصوبة الواسعة الانتشار . ولعل خط
الساحل فى إقليم طرابلس إلى طنجة ، قد بدا فى عين الغزاة المسلمين بعد

هذا الزمن بقرن ، كأنما هو بستان واحد مستديم تناثرت فيه المساكن المتباعدة .

عوامل ضعف القوط الشرقيين

على أن التدخل الإمبراطورى فى إيطاليا جاء فى الوقت المناسب . وذلك أن النوازن الذى خيم على دولة ثيودوريك الثنائية قضت عليه وفاة تلك الشخصية العظيمة التى كانت ترفع بيدها ميزان الأمور . وتولت ابنته أمالا سوننا الوصاية على ابنها البالغ عشر السنوات ، والذى تولى العرش عقب وفاة جده . وتمخض حكم المرأة عن مشاكل ما لبنت حتى عجلت بانهيار نظام ثيودوريك . فإن تربيته الرومانية جعلت المقاتلين القوطيين يرتابون فى أمرها ، على حين أن بيزنطة استخدمتها ، أداة وألوبة فى سياستها الإمبراطورية ، بل لعلها لم تحفل بها عند وفاتها . ونظراً لأنها كانت تمد العرش حقاً خاصاً لأسرة آمال ، فإنها صممت وابنها لا يزال حدثاً تحت الوصاية أن تحتفظ بالعرش لو مات الصبي ؛ ولكنها كغيرها من أبناء شعبها كانت ضعيفة الإحساس بالوحدة القومية ، فلم تتردد قط فى التفاوض سرّاً مع جستنيان عندما أصبح مركزها حرجاً .

ومن الحقائق التى ترشدنا فى هذا المقام أن كل من تعاقب على العرش من زعماء القوط أمثال : ثيوداهاد وويتيجيز وهلديباد وإيراريتش وتوتيل — كان يعد علاقاته بالإمبراطور أمراً شخصياً بحتاً ، لا يختلف فى ذلك عن ثيودوريك مقدم الجند شبه المستقل ، فى مساوماته مع الإمبراطور زينون قبل خروجه لفتح إيطاليا . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه يرجعون بصورة

متناقضة غير منطقية إلى التسوية التي عقدت مع أناستاسيوس^(١) معتبرين إياها نوعاً من الأساس القانوني لدولة رومانية قوطية . وقد فاتهم تماماً أن مركز ثيودوريك الذي لم يتحدد قصداً لم يحفظه في الواقع سوى المحالفات الكثيرة التي عقدها مع الدول الأجنبية ، فضلاً عن الوفاق والانسجام الديني والسياسي الذي ساد في الداخل ، وبذلك تهيأ له أن يواجه بيزنطة بجملة وطيدة . غير أن ارتفاع شأن قوة الفرنجة ومؤامرات الكاثوليك وتدمير طبقة رجال السناتو قد قوضت هذا البنيان فعلاً قبل وفاة ثيودوريك .

ولما لم تستطع أما لاسونثا الصمود تلقاء معارضة القوط ، صممت على أن يشركها في العرش ابن عمها ثيوداهاد ، وهو طراز آخر للبربري ذى الطابع الروماني الطامع وإن يكن أعجب شأنًا . كان ثيوداهاد شغوفاً بفلسفة أفلاطون ميالاً إلى الهدوء والسلام ، وكان لديه عدا ذلك نزعة تسلطت عليه تماماً ، هي الحرص على امتلاك الأراضي . لقد كان على استعداد تام — كما أكد ذلك ليجستينيان في مفاوضات تالية — لأن يتنازل عن إيطاليا في مقابل الحصول على مزرعة ومنصب في البلاط الإمبراطوري . وسجنت أما لاسونثا بأمره بجزيرة وسط بحيرة بولسينا ، حيث تم إعدامها بعد ذلك . وكانت تلك هي إشارة بدء الهجوم البيزنطي . إذ تقرر غزو إيطاليا براً من جهة دالماتيا ، وبحراً من إفريقيا . ففي (٥٣٦) استولت قوة إمبراطورية على سالونا عاصمة دالماتيا . على حين قاد بليسايريوس جيشاً تقارب عدته ٧٥٠٠ رجلاً . ولا شك أن قلة عدد قواته شيء يسترعي الانتباه ، وذلك بالنظر إلى أهدافه ومنجزاته الكبيرة . ولكن قلة العدد كان يعوضها إلى حد كبير التنظيم الفائق والخطط

(١) انظر ص ١٢٤ .

الاستراتيجية التي قاوم بها جموع البرابرة غير المتماسكة . على أن قلة العدد منعت من الناحية العملية من الاشتباك في معركة حاشدة ، وهذا هو العنصر الذي تحكم في طبيعة الحرب التي تلعب فيها القلاع والحصارات دوراً بارزاً .

فتح إيطاليا

وفي هذه الظروف تجلت عبقرية بليسا ريوس العسكرية في أعلى ذراها . كان المثل الأعلى للجندى المحترف ، فكان شجاعاً في ساحة الحرب واسع الحيلة في أساليبه ، فتملق به الجند على اختلاف عناصرهم في أثناء حملاته في القارات الثلاث ، ولهذا السبب ذاته كان جليل القدر عند جستنيان ، إذ لم تكن له مطامع سياسية ، ولم ينحرف قط عن ولائه للعرش . ومع ذلك فقد أثار نجاحه في نفس الإمبراطور شبهات قوية ؛ فقتل عليه في الرجال والمال . ولقي من حاسديه من رملائه في القيادة كل شر وعناء ، وكانت الحاسة السياسية لديه ضعيفة ، فأوقعه ذلك في أخطاء جسيمة ، كما أن انقياده لزوجته أنطونينا ، الصديقة الحميمة للإمبراطورة ، قد ورطه في المؤامرات المعقدة التي كانت تهاك بالقصر . ولذا فإنه قصر دون بلوغ مرتبة البطولة الحقة . على أنالو وازنا بين حدوده وعيوبه ما خفي منها وما ظهر ، بما حققه من أعمال رائعة لتبين أنه كان بحق أعظم قائد في زمانه .

سقطت صقلية دون تسديد رمية واحدة ؛ إذ كانت حاميات القوط فيها ضعيفة لا تكاد تنفي باحتلالها ، كما أن أصحاب الأملاك فيها استقبلوا الجيوش البيزنطية بالترحاب . وكانت نابولي حاضرة القوط في كامبانيا هي الهدف التالي للقوات البيزنطية ؛ فلم تلبث أن أذعن للهجوم بعد حصار مثير ، ولم يخل الأمر من بعض الأحداث المؤسفة ، إذ كان سكانها - وهم من التجار -

أقل استعداداً من صقلية أو بروتيوم الإقطاعية للترحيب بالقوات الإمبراطورية،
التي يبدو أن من كان بها من هون وإسوريين وصقالبة، كانوا يبعثون الخوف
فيهم أكثر من القوط .

وفي تلك الأثناء استبد اليأس والفشل بالملك ثيوداهاد ، — فسمى
للتفاوض مع الإمبراطور ؛ على أن انتصار جيوشه في دالماتيا دفعه إلى نبذ
العرض الذي أسلفناه إليك ، ومن ثم لم تسفر المباحثات بينهما عن أية نتيجة .
وكان سقوط نابولي هو الذي قرر مصيره المحتوم . إذ خلعه الجيش القوطي ،
وانتخب مكانه وينيجيز أحد قواد ثيودوريك . وكانت المستقرات القوطية
الرئيسية تقع بشمال إيطاليا ، فبادر وينيجيز إلى الانسحاب إلى رافنا لينظم قواته
بعد أن ترك روما مفتوحة للبيزنطيين ، فاحتل بليساريوس المدينة (روما) .
وقضى شتاء عام (٥٣٦ — ٥٣٧) في عمارة الأسوار المتخربة ، إدراكاً منه
لأهمية التمسك بالعاصمة ، رغم ما تراءى لكثير من الرومان ، من سخافة
الفكرة التي تجعل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل يتولى الدفاع عن محيط
مدينة يبلغ اثني عشر ميلاً من هجمات جيش يفوقهم في العدد عشر مرات
أو عشرين مرة . وإن قصة الحصار ليست إلا سلسلة من الأحداث الجذابة
المثيرة ، التي تبدأ بفرار بليساريوس على جواده الأشهب كلون الحديد ذى الفرة
البيضاء ، من الخيالة الذين تعقبوه ، ووصوله أمام أسوار المدينة ، التي أبت
أول الأمر أن تفتح أبوابها لذلك الراكب المسريل بالدم والنقع^(١) . واستشرت
الخيانة والرعب في الداخل . وأوشك القوط أكثر من مرة أن ينفذوا إلى
المدينة ، بأن لجثوا إلى نقطة ضعيفة ، أو عمدوا إلى الزحف أسفل بهو الأعمدة

(١) النقع هو غبار الحرب كما في البيت المصهور . (المترجم)

بكنيسة القديس بطرس ، فيردم أعداؤهم بمهاجمتهم لهم بالثماثيل المحطمة المنتزعة من مقبرة الإمبراطور هادريان . واستمات بليساريوس في الدفاع حتى وصلته الأمداد المتأخرة ، وفي مارس (٥٣٨) رفع الحصار عن المدينة بعد أن دام سنة كاملة . فأضحى الطريق وقتئذ ممهدا لقيام بليساريوس بزحف جديد ، وهوجمت معاقل القوط المنيعه بوسط إيطاليا ؛ ولم تفته سنة (٥٣٩) حتى أطبقت الجيوش البيزنطية على رافنا . وتلى ذلك قصة عجيبة ، توضح بقوة أخلاق القوط والبيزنطيين . ذلك أن چستنيان لما شعر باحتمال نشوب الحرب بينه وبين فارس ، أظهر استعداداً لمنح القوط شروط الصلح ، بأن يترك لهم الاحتفاظ بما يملكونه من الأراضي الواقعة شمال نهر يو . على أن بليساريوس أبى أن يتجرد من نصره فرفض التصديق على الاتفاق . وغضب القوط لذلك وجزعوا إذ وجدوا أنفسهم بلا أرض يستقرون فيها فعرضوا عليه التاج ، وقبل ويتيجيز التنازل عن عرشه . وقبل بليساريوس العرض ، ولكنه ما كاد يدخل رافنا حتى أظهر ما كان يضره من الحياة . وأسقط في يد القوط ولم يعد في إمكانهم أية مقاومة بعد ذلك . واقتيد ويتيجيز وحاشيته أسرى إلى بيزنطة . وأضاف چستنيان إلى ألقابه ، لقب ملك القوط (Gothicus) أيضاً ، وأرسل من قبله والياً برايتوريا ليتولى الحكم في الإقليم الذي استرده ، على حين نقلت معظم القوات إلى الشرق .

وكان ما عقب ذلك من أحداث يعد في رأى بيزنطة مجرد عصيان . بيد أنه كان عصيانياً عارماً جداً . واحتاج رد إيطاليا إلى الطاعة إلى أربعة عشر عاماً من الحرب الشواء . إذ إن القوط بزعامه ثونيلا المشهور بصلابة الإرادة استطاعوا أن يجملوا سلطان بيزنطة في شبه الجزيرة الإيطالية ، ظللا لا يتجاوز

ما كان لهم من حاميات بالمدن الساحلية والمعاقل المنفرقة . وكان هدفهم هو بسط سيطرتهم على السهول ، وبهذه الطريقة يضمنون لأنفسهم الحصول على الجزية . التي تؤدي إلى الخزانة البيزنطية . وفي الحين نفسه عمد القوط بمهارة إلى الإفادة من كراهية الشعب لليونانيين ونحويله إلى جانبهم ، فساندوا صغار الفلاحين على ساداتهم . وكان أصحاب الأملاك الذين تجردوا من أملاكهم ورجال الدين السكاثوليك الذين كانوا يؤيدون نظام الطبقات ، يعدون توتيلاً طامعياً وزنديقاً . أما الفلاحون الذين نخلصوا من كثير من أعمال السخرة الإقطاعية (Corvées) التي كانت تناط بهم ، فإنه هبط عليهم كمنقذ أرسلته العناية الربانية . ولم يكن بوسع الجيوش البيزنطية الصغيرة أن تلتقي به في ميدان القتال ؛ وتعرضت روما للسقوط والاسترداد مرتين . وبعد قتال يائس لم يشتبك فيه الرومان إلا بوسائل ضئيلة حدث آخر الأمر أن تقرر استدعاء بليديساريوس ، فكان ذلك اعترافاً صريحاً بالإخفاق . وفي (٥٤٩) رأس توتيلار سميماً حفلة ميدان السباق بروما ، وبدأ في تجديد مباني العاصمة ، بينما أغارت أساطيله على شواطئ دالماتيا للنهب والتخريب . « فأضحى الغرب بأكله في قبضة البرابرة » . على حد قول پروكوبيوس .

وإذ بلغ الأمر هذا الحد قرر جستنيان أن يرسل للمرة الأخيرة ، من القوات ما يكفي فعلاً للقيام بحملة حربية ، ولعل الذي حفزه على ذلك ، المهاجرون الرومان أصحاب النفوذ القوي في بلاطه . واستطاع القائد المحنك نارسيس الخصى بعد أن تعطل في دالماتيا أن يتجنب في سهولة ويسر ما أقامه توتيلار من استحكامات دفاعية ، بأن اتخذ الطريق الساحلي إلى رافنا . وكان الجانب الأكبر من جيشه مؤلفاً من البرابرة اللومبارديين

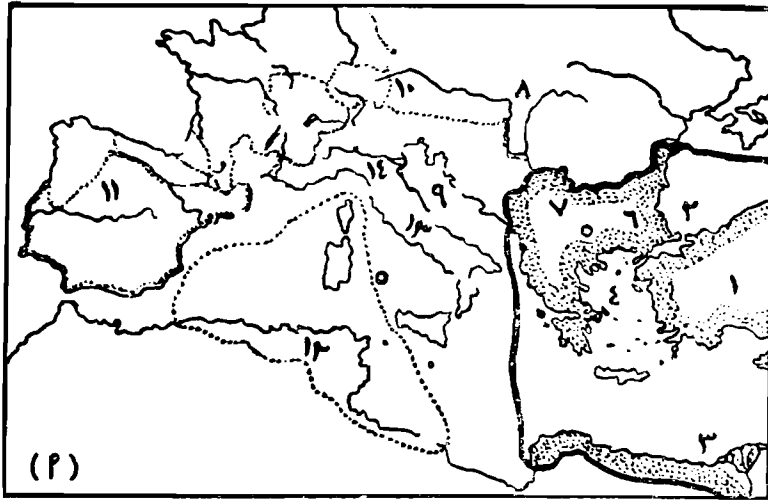
والهيرول والهون ، وكانوا من وفرة العدد ما يكفي لمواجهة العدو في الميدان ، بل امتازوا على العدو بما كان لنارسييس من دراية بالفنون العسكرية . وعند ذلك أصبحت المعركة الفاصلة وشبكة الوقوع . وسارع توتيلا من روما للقائه ، فهزمت القوات القوطية هزيمة ساحقة في معركة كبرى قرب بوسطا جالوروم (٥٥٢) بجبال الأبينين . ولقى توتيلا مصرعه . ووقف القوط وظهورهم إلى السور واستماتوا في القتال ، غير أن حاميات جنوب إيطاليا استسلمت في (٥٥٥) ؛ وصمدت برسكيا وفيرونا حتى (٥٦٣) بفضل مساعدة قوات من الفرنجة .

ويقول مؤرخ ساذج إن نارسييس أعاد إلى إيطاليا « سالف مرحها وسرورها Pristinum Gaudium » . وإن « القرار التنظيمي » الذي أصدره جستنيان في (٥٥٤) إنما هو محاولة متعمدة منه لرد عقارب الساعة إلى الخلف ، فإن لم يكن الرد إلى (٤٧٦) فهو على الأقل إلى ما قبل المئة التي انتزع فيها توتيلا أملاك أصحاب الأراضي وحرر من لديهم من موالى الأرض (Serfs) . ومنذ تلك اللحظة استقر في رافنا نائب إمبراطوري Exarch له القيادة العليا على الإقليم كله ؛ وتقرر الاستغناء عن كل الموظفين والمدنيين وتميين غيرهم ، واعتقد جستنيان أنه بفضل جهوده قد تم إرجاع البلاد نهائياً إلى سيرتها الأولى . غير أن ما فعله كان في الواقع شيئاً يختلف عن ذلك اختلافاً بليفاً . ذلك أنه بتقديم قوة القوط أزال الحاجز الوحيد الذي يمكنه الوقوف في وجه حشود اللومبارد البرابرة ، الذين تدفقوا على إيطاليا بعد موته ببضع سنوات .

بيندكت أسقف نورسيا

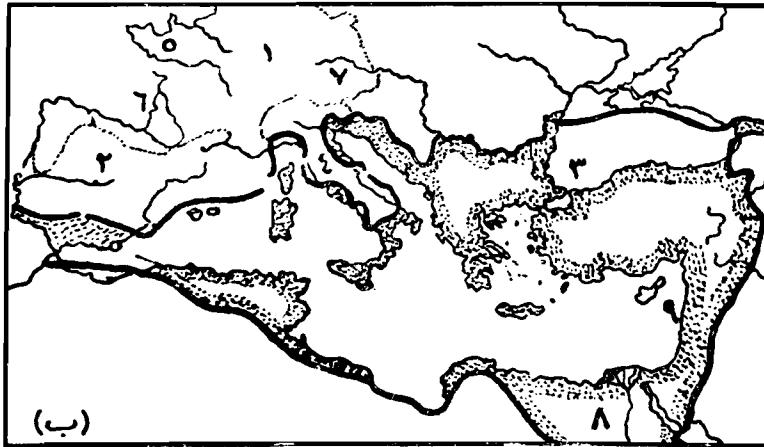
على أن عمال الخراج عند جستنيان أتوا ما حل بالبلاد من الخراب والدمار . إذ خلت المناطق الريفية من سكانها وتداعت المدن . وصارت روما بعد أن سقطت خمس مرات في أثناء هذه الحروب مكاناً قفراً ، انتشرت به الأطلال والخرائب . وولت تجارة روما ، فصار لزماً على سكانها منذ ذلك الحين ، أن يعتمدوا في معاشهم على صدقات الحجاج وإحسانات البابوية . وتوقفت السقايات ، وبطلت الحمامات العامة ، على حين أن سهل كامبانيا الخصيب لم يلبث أن تحول إلى ربوع موحشة ومبادة للغلاريا ظلت تحيط بالمدينة حتى الأزمنة الحديثة . وزال كل أثر لما كان معروفاً في الماضي من «الخبز والماء» . إذ إن آخر ما جرى من الألعاب كان في عهد توتيلا . وقرر جستنيان آخر الأمر منع إرسال الميرة المجانية من القمح إلى روما . واختفى القناصل ومجلس السناتو رويداً رويداً . وهاجر كثير من النبلاء إلى بيزنطة ، فاركبن قصورهم للخراب والأطلال .

وزحفت على إيطاليا كلها ظلال الاستسلام والتبذل . ولم يبق للرجل الذي يأنس إلى الحياة الهادئة ما يأمله في هذا العالم . ولم يعد له من مآذ يلجأ إليه غير الدير ، وسرعان ما انتشرت ببلاد الغرب قاعدة الديرية التي وضعها بيندكت النورسي والتي سدت هذه الحاجة ، فحلت محل القاعدة القديمة التي سبق انتقالها من مصر إلى أديرة جنوب فرنسا . ومع أن قاعدة بيندكت نقلت من القواعد السابقة لها قدراً كبيراً ، فإن ما انطوت عليه من روح إذلال النفس ، والحياة المعتدلة المنظمة ، جعلها شديدة الاختلاف عما كان سائداً



(أ) خريطة الإمبراطورية الرومانية في عام ٥٢٦ م

- | | | |
|----------------------------|---------------------------|--------------------------|
| ١ — الإمبراطورية الرومانية | ٢ — القسطنطينية | ٣ — الإسكندرية |
| ٤ — أثينا | ٥ — سالونيك | ٦ — أدرنة |
| ٧ — نيش | ٨ — اللومبارد | ٩ — مملكة القوط الشرقيين |
| ١٠ — البغاريون | ١١ — مملكة القوط الغربيين | ١٢ — الوندال |
| ١٣ — روما | ١٤ — رافنا | |



(ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٣ — ٦٠٠ م

- | | | |
|-----------------------|--------------------------|-----------------|
| ١ — مملكة الفرنجة | ٢ — مملكة القوط الغربيين | ٣ — القسطنطينية |
| ٤ — مملكة اللومباردين | ٥ — بريتانى | ٦ — بوردو |
| ٧ — الآلامان | ٨ — مصر | ٩ — بيروت |

(٧) فتوح جستنيان

ياقليم طيبة من التنسك الفردى ، الذى اتسم بالحماسة وروح المنافسة . إذ
أجازت قاعدة بنيدكت للمريدين قدرًا كافيًا من الطعام والنوم والرياضة
واللباس ، ولم تستلزم جهداً مفرطاً من الناحية الفكرية أو الجمالية . ولم تكن
ظهرت بعد صنوف الخدمات التى قدمها البنيديكتيون المتأخرون^(١) فى حقول
التعليم والزراعة والبناء . ومع ذلك فقد أدخل كاسيودوراس نسخ الكتب
فى دير أسكويلاس الذى أنشأه فى أواخر أيامه ، ولاشك أن شغفه الشديد
بالأدب الكلاسيكى وجهه للسان اللاتينى النقى الآخذ نقاؤه فى الزوال ، قد
احتفظ للأجيال القادمة بشعر فرجيل وهوراس ، ونثرشيشرون وكوينتيليان ،
فضلا عن ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العتيق الذى قدمه لقراء
العصور الوسطى كل من لاكتانتىوس وجيروم وأمبروز وأوغسطين .
والظاهر أن أتباع بنيدكت قد عادوا بعد وفاته بقليل إلى نسخ الكتب ؛
وإن لم يكن بنيدكت نفسه وهو الملقب بالعالم بالفطرة والعامل بالموهبة
(*Scienter Nescius et Sapienter ind octus*)^(٢) ممن يشجعون القيام
بذلك . إذ الواقع أن جوهر قاعدته هو السكوت المطلق (*Summa Quies*) .
وهى حقيقة يمكن العثور عليها (نقلا عن الإيقاعات اللغوية الفائقة التى اختتم
بها نيومان فقرته الذائعة الصيت) فى قول بنيدكت لا شئ يستحق الإعجاب
(*Nil admirari*) ؛ وفى إغفال كل ما فى الدنيا من الخوف والرجاء ؛

(١) إن الدوم كثرت بنر يميز فى O.S.B. بوضوح بين فكرة بنيدكت الأصلية وبين
التطورات التالية التى أملت بها فى (*Benedictine Monachism*) الطبعة الثانية ف ٣
لندن ١٩٢٤ .

Greg. Dial. ii. Praef. (٢)

وفي الصلوات اليومية وفي القوت اليومي وفي العمل اليومي ، إذ لا يختلف يوم عن آخر ، إلا في كونه أقرب من سابقه بخطوة إلى ذلك « اليوم المشهود » الذي سوف يبتلع الأيام جميعا ، وهو يوم « الراحة السرمدية » .

اضمحلال روما

على أن نجاح جستنيان في مغامرته بالغرب اكتنفته بعض ظلال قائمة . فإن الفتوح الباهرة التي أحرزتها قوات لا تتناسب وإياها مطلقاً ، كانت تقف قبالتها وتغض من شأنها ضروب شديدة من الضعف والمخاطر . وجملة القول ، إن قبضة بيزنطة على البحر المتوسط الغربي كانت قبضة دولة بحرية . فإن الدولة وإن تخلت عن الولايات الغربية بإفريقية ، لم تبرح تسيطر على المدن الساحلية التي في يدها حتى مضيق جبل طارق . واستردت من القوط الغربيين المدن البحرية الواقعة بجنوب أسبانيا . وكان لإقليم بروفانس عند ذاك في أيدي الفرنجة ، واقتصرت ولاية إيطاليا على شبه الجزيرة وحده ، فلم تعد رايتيا (Raetia) ونوريكوم في أيدي الرومان . وترتب على الفتوح الوندالية أن انضمت جزيرة كورسيكا وسردينية إلى إفريقية ، بينما صارت صقلية تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . ودل سير الحرب القوطية على ما سوف يحقق بأجزاء إيطاليا الداخلية من مصير ، إذ لم تكن القوات الإمبراطورية كافية لحماية تلك الأجزاء من غارات أهل الشمال ، ولذا لم يلبث أن تألف منها بعد زمن قصير الدوقيات اللومباردية . على أن المناطق المحيطة بالبندقية ورافنا وناپولي وروما فضلا عن جنوب كالابريا ظلت تابعة لبيزنطة ، كما أن الحكومة الإمبراطورية (الأرجوانية) في رافنا لم تزل من الوجود

إلا بعد قرنين من الزمان^(١) . ومما يدل على ازدياد أهمية هذه المدينة ما حفلت به من كنائس رائعة يعود تاريخها إلى تلك المدة . على حين أن نتائج الأحداث التي استمرت نصف قرن ، والتي حولت روما ، أعظم مدن الغرب مجدداً إلى مدينة إقليمية مضمحلة متداعية ، وإلى تابع ذليل لمنافستها الشرقية بيزنطة ، تتجلى بقوة في التباين الشديد بين ما في الفسيفساء في حنيات كنيسة القديسين كوزماس وداميان (حوالي ٥٣٠ م .) من رسوم بالغة الروعة وشديدة الأثر ، وهي تعتبر الصورة النهائية للفن الروماني في قرون عديدة ، وبين ما في فسيفساء القديس لورنزو فيوري لومور (حوالي ٥٨٠) من مناظر مستوية مجردة من الحياة . والراجح أنها من إنتاج صناع بيزنطيين يقلون رتبة ومهارة . أما البابوية نفسها فإنها فقدت كل استقلال . فقد عوجل أحد الأتباع بال عزل ؛ وحمل آخر إلى القسطنطينية قسراً ليلقى الإهانة والسجن^(٢) . ذلك أن خلفاء جستنيان واصلوا العمل بخطة « السيادة الدينية للقيصر Caesaropapism » التي رسمها ذلك العاهل ، حتى إن البابا جريجوري الكبير ألغى نفسه مضطراً إلى المبالغة في مداينة الطاغية فوقاس . ومع ذلك فإن سلطة الكنيسة كانت في ازدياد مطرد ؛ إذ تزايد ما كانت يمارسه أساقفتها من سلطة دينية ؛ وتوافرت الأموال والضيق المحبوسة عليها . وكان للكنيسة نظام دائم ، فكان بوسعها أن تنتظر حتى يكتمل إعداد الوسائل اللازمة لبسط النفوذ البابوي في أوروبا الغربية ، وهو العمل الذي تم على يد البابا جريجوري .

(١) قيل « إن ممتلكات الإمبراطورية واللومبارد بإيطاليا بلغ من تداخلها أنه لم يعد في الإمكان قيام وحدة قومية » . ومن هنا كان الفتح البيزنطي مسئولاً إلى حد ما عن ضعف الشعوب القوي ، الذي كان له أثر كبير فيما تلى ذلك من تاريخ إيطاليا .
(٢) انظر ص ١٩٩ ، بعنوان مذهب الطيعة الواحدة .

الفصل السادس

جستينيان والشرق

الإصلاحات الإدارية

من المعلوم أن جستينيان اتبع في الغرب سياسة هجومية ؛ بينما حرص على أن تكون أهدافه دفاعية في الشرق . وكان يرى ضرورة صيانة الاستقرار على الحدود بإنشاء مجموعات هائلة من الأسوار والقلاع ؛ فإن أعباءه الحيل مع البرابرة وجب شراء رحيلهم بالمال . أما الاستقرار في داخل الإمبراطورية فكان في رأيه لا يتحقق إلا بالإصلاح الإداري . فإن هذا الإجراء فضلا عن تقليله من فرص الفوضى ، لا بد أن يحقق لجستينيان موارد مالية بالغة الأهمية ، بزيادة رضا السكان وتحسين الجهاز المالي . والواقع أن جستينيان لم يقصد التضحية برعاية رعاياه في سبيل سد حاجياته المالية . وتقوم فلسفته على ما يلتزمه الإمبراطور (الحاكم) والشعب نحو الإمبراطورية من واجبات متعادلة ، بوصفهما الركنين اللذين تتألف منهما الإمبراطورية ، فالإمبراطور يتولى الغزو والفتح ، بينما يلتزم السكان مساندته في ذلك .

وقد بدأ جستينيان إصلاحاته بإصدار مرسومين عظيمين في (٥٣٥ م) . فصدرت تعليمات تفصيلية عن تنظيمات كل ولاية بمفردها ؛ والمقام لا يتسع هنا لغير المبادئ الأساسية . ومن أبرز المساوئ في عهده رسوم التوظيف (Suffragia) التي كان على الموظفين أن يدفعوها لكي يحصلوا على وظائفهم والتي هي في الواقع رسوم للتوظيف أو ثمن مدفوع . وكانت نتيجة ذلك

اضطراهم إلى تعويض أنفسهم عما دفعوه بابتزاز الأموال وقلة الأمانة بجميع أنواعها . وكان كل الجهاز الإداري ، ابتداءً من الوزراء الكبار بالعاصمة إلى أصغر شرطي وجندي بالأقاليم ، طامحاً بالرشوة والفساد . فهرع إلى القسطنطينية حشود من أصحاب المظالم . ولم يكن الموظفون المركزيون يستطيعون الحصول على أية معلومات صادقة عن الحكومة المحلية بالأقاليم ، فإذا جرت محاسبة الموظفين على تصرفاتهم التمسوا العذر فيما يتطلبه تأدية رسوم الوظائف من مقتضيات . والآن أبطل الإمبراطور هذه الحجة ؛ فلم يعد الموظف يؤدي عند الالتحاق بالوظيفة إلا رسوماً خفيفة . وصدرت أوامر صارمة لتنظيف النظام الإداري . وصار لزاماً على الولاة أن يكونوا ذوي « أيد طاهرة » — وهذه العبارة تردد ورودها كثيراً كأنما هي لزمة ثابتة (Leit - Motif) في كل ما صدر من مراسيم . ونحتم عليهم توفير العدالة المتكافئة للناس جميعاً ، وحماية رعاياهم من عنف العسكريين أو مما يبتزه صغار الموظفين من الأموال ؛ وحفظ التوازن بين الغنى والفقر ، والتزام العدالة في احترام حقوق الكنيسة والدولة بدرجة متساوية . غير أن واجبهم الأول هو « أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزنة ، وأن يبذلوا كل جهدهم في الدفاع عن مصالحها » . وكانت الأوامر تعزز بيمين رهيب ، كان على كل حاكم جديد أن يقسمها ؛ فإن أخفق في أداء واجبه ، تعرض « لشدائد يوم الحساب الرهيب » ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيغزى والفالج الذي أصاب قابيل . وأدخلت تبسيطات هامة في الجهاز الإداري ببعض أجزاء الإمبراطورية . وضمت الأقاليم حتى جمعت وحدات أكبر واختفت الأقسام الإدارية (Dioceses) . وكانت السلطات العسكرية والمدنية توحد في بعض الحالات — وهو تغيير يمد إرهاباً بالألوية (الثيمات Themes) التي ظهرت في التاريخ البيزنطي . وتقرر أيضاً

تبسيط الإجراءات القانونية ؛ فتمسر تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم ، غير أن التقدم بالشكوى رأساً إلى القسطنطينية أحبط ببعض الصعوبات . وقد كفلت هذه الإجراءات تحقيق السرعة في القضاء المحلي ، على حين منعت اشتداد الضغط على محاكم العاصمة .

وكان جستنيان يرجو بهذه « الأفكار الفاخرة » أن يكون هياً للدولة « عصرآ جديداً زاهراً » . غير أن أحداث السنوات التسع والعشرين التالية أثبتت خطأ ظنونه . وأكبر شاهد على ذلك معاودة تجديد المراسيم سنة بعد أخرى طوال تلك المدة وتكرار ما بها من التهديدات والالتماسات بلا نهاية . لقد كان الوضع ميثوساً منه جملة وتفصيلاً . ويعود السبب في ذلك إلى النظام نفسه من ناحية ، وإلى السياسة الإمبراطورية من ناحية أخرى . فإن جهاز الحكومة الهائل المعقد ، الذي تغلغل فيه الفساد قروناً عديدة ، كان بمثابة مقاومة شديدة لكل إصلاح ، كما أن ازدياد حاجة جستنيان المستمرة إلى المال ، كان من القوة بحيث يمنع كل إصلاح .

وتفيض كتابات المعاصرين بذكر ألوان الشقاء التي كان يقاسمها رعايا جستنيان التعساء . فإن لكل ولاية قصصها التي تروى عما حل بها من مظالم ، وعن الظالمين المعروفين بالسمعة السيئة . وكانت تدور في الأسواق حول هؤلاء الرجال مجموعات لا آخر لها من الحكايات والقصص . فمنها أن يوحنا « المنتفخ الأوداج » حاكم آسيا أهان الأسقف ، وما زال برجل شيخ حتى دفعه إلى الانتحار واغتصب أبناء الأعيان . واشتهر يوحنا « المقتص » بإيطاليا بمهارته في قرض العملة . وفي العاصمة نفسها استحدث يوحنا القبادوقى ، حينما كان رئيساً للإدارة المالية ، غرفة للتعذيب في سرايب

مقره الرسمى بزج فيها كل ممتنع عن دفع الضرائب ، على حين أن تريبونيان ، وهو وزير العدل ، كان يتجر علناً فى أحكام الحاكم . وكلما زادت الحاجة تقرر فرض ضرائب جديدة ؛ وأضيفت الاحتكارات والتعريفات الجمركية إلى الأعباء التقليدية المتمثلة فى ضريبة الأرض ، فضلاً عن الضرائب المتعلقة بنقل الجنود وإمدادهم بالطعام^(١) . على أن مدن آسيا الصغرى التى استقرت أحوالها ، وازدهرت تجارتها فى أثناء القرن الماضى ، فهيات للإمبراطورية فى الشرق أن تتجنب الإفلاس الذى اجتاح الغرب ، — أخذت تحس الآن بالوطأة التامة لمطالب چستنيان : — ذلك بأن بلاد البلقان تعرضت للخراب والنهب على أيدي الصقالبة والهون ، وألحقت غارات الفرس الخراب بسوريا ؛ فلم يعد بوسع الحكومة أن تمتاز مزيداً من الخراج من هذين الإقليمين . وعلى الرغم من كل شيء لم تكن الموارد كافية : حتى لقد انتهى الأمر بذلك الحكم الطويل إلى إهمال القلاع وتأخير أعطيات الجند ، وإلى تخفيض حاميات الثغور* ؛ ثم تم إغلاق حلقة الفساد المفرغة على عنق الدولة ، حينما التزمت الإمبراطورية ، وقد تجردت من كل وسائل دفاعها أن تؤدى لجيرانها البرابرة من الجزيات والإعانات المالية ما زاد فى خراب اقتصادياتها الزائفة .

قوانين چستنيان

على أن ما اشتهر به چستنيان من الميل إلى النظام والانساق ، وجد فى مجال التشريع منفذاً صالحاً . وكان الواجب المطروح بين يديه ضخماً هائلاً ، كما أن العمل الرائع المنجز كان جليلاً حقاً مع وضع مالقيه من الصعوبات

(١) انظر ص ٢٦ بعنوان دقلديانوس وقسطنطين .

* الثغور : كما ورد فى المعاجم : هى المواضع التى يخاف العدو منها ، أى من مناطق الحدود . [المترجم]

موضع الاعتبار . وكان القانون الرومانى يتكون من مجموعتين تعرفان عادة باسم القانون القديم (*Ius vetus*) والقانون الجديد (*Ius novum*) . وكان القانون القديم يتألف أساساً من قوانين ولوائح الجمهورية والإمبراطورية الأولى ، ومن مراسيم السناتو فى أثناء الفترة نفسها ، ومن شروح الفقهاء المعاصرين . واجتمع من كل ذلك خليط هائل : وكان بعضها بعيد المنال لا سبيل إلى الوصول إليه ، وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ، ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض وصار من اليسير الاستناد إلى رأى فقيه آخر ، ومن هنا لم يعد القاضى ولا المحامى يشعر بالاطمئنان إلى أن رأياً غريباً قد لا يظهر أمامه فى المحكمة فيقلب حججه رأساً على عقب . أما القانون الجديد فاحتوى على أوامر الأباطرة فى الأزمنة التالية . وهنا أيضاً يفتقر الأمر إلى الصدق واليقين ، فربما صح أن يبطل مرسوم مرسوم آخر ، إذا لم تجتمع حتى وقتذاك مجموعة كاملة من المراسيم . غير أن هذه المشكلة أكثر يسراً من المسائل الأخرى .

فى السنة التالية لتولى جستينيان العرش (٥٢٨) ، بدأ عمله العظيم بتعيين لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء لمراجعة القانون الجديد (*Ius novum*) ، وإزالة ما فيه من متناقضات وزيادات ، وجمع أنمن ما تبقى فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب — وكان هذا هو المعروف « بمجموعة جستينيان القانونية » (*Codex Iustinianus*) الشهيرة ، وكان نجاح اللجنة مشجعاً للإمبراطور على المضى إلى القانون القديم (*Ius vetus*) . فتألفت لجنة جديدة فى (٥٢٠) لمعالجة ما يدخل فى دائرة عملها من قدر هائل من الدراسات القانونية ، التى تتألف مما لا يقل عن ألفى بحث . وكان على اللجنة أن تختار من بين كتابات جميع الفقهاء المعترف بقدرهم نصاً واحداً للقانون عن كل نقطة ؛ وكان عليها أن تغير عبارات المؤلف كلما تطلب الوضع ذلك أو دعت إليه مقتضيات

الزمان . ومن نتائج هذه العملية ظهور المحسنين كتابا التي تحوى ما يسمى الموجز القانونى (Digest or Pandects) ، وهو أهم كتب القانون التي شهدها العالم ، لا في حد ذاته فقط بل في الأثر الذي خلفه في جميع التشريعات التالية . على أنه معرض للنقد من وجوه عدة . ذلك أن العمل تم في سرعة ، ولم يكن الترتيب والتنظيم مثالياً . وهو ليس في الواقع تقنياً أى إخضاعاً للقوانين السابقة لقاعدة منتظمة . وإنما هو أقرب إلى بعض مباني ذلك العصر ، التي كانوا يعمدون فيها إلى ما اشتهر به عصر متقدم من الرسوم الدقيقة الغائرة أو البارزة ، فيزجون بها بين الأحجار الخشنة ومباني القرميد التي غلب عليها طابع العجلة ، لكي تكون أحجاراً عادية بحيث في مبنى قبيح . ولا شك أن أجل ما عبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه في فن التشريع . فما اتسمت به صيغها القانونية من الرشاقة ، وما انتشت به حلولها من الروعة والجمال ، أشياء لاسبيل إلى مباراتها . ولكن علماء القانون في القرن السادس لم يكتفوا بتلخيص ما أورده أسلافهم المشهورون ، بل أغفلوا كل ما استعصى عليهم فهمه من تفسيرات حاذقة ، وتعرضت العبارات الجوهرية للحذف والتشويه ودخل في النظام الرومانى أفكار هيلينستية وشرقية .

وربما لم يكن هناك مفر من وجود هذه المعايير . إذ لا سبيل إلى أن يتحقق في زمن جستنيان وأحوال عهده ، ما يفوق القوانين التي صدرت . على أنها بحالتها الراهنة ، إنما هي تعبير كامل عن الحقبة . وهي في إصرارها على استخدام اللغة اللاتينية والإفادة من التراث اللاتيني وفيما تضمنته من مبادئ عن الحكم الاستبدادى للإمبراطور ، إنما تنظر إلى ما خلفه القياصرة

من قبل من سجل حافل . وهى بما يتجلى فيها من زيادة السمات الإنسانية ، ومن اعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية (Patriapotestas) ، إنما تسجل الشوط الطويل من التقدم الذى قطعه التفكير القديم وظهر تأثير الكنيسة واضحاً فى ازدياد صرامة القوانين المتعلقة بالطلاق والاعتداءات الجنسية .

ولكى يتم جستبيان عمله التشريعى أصدر « الشرائع Institutes » ، وهو كتاب تعليمى ابتدأى وضع ليستخدمه الطلبة . وتقرر أيضاً إعادة تنظيم دراسة القانون ، فصدرت لوائح تنظيمية تفصيلية للجامعات الكبرى الثلاث فى روما والقسطنطينية وبيروت . فلم يترك الإمبراطور شيئاً لتحكم فيه الصدفة أو يلم به التغير . وحذرت السلطات الأفراد من إصدار شروح جديدة للقوانين ؛ وحنمت أن تكون جميع الترجمات حرفية . ولم يعد التشريع مباحاً إلا للإمبراطور نفسه . ومن سخريات الدهر العجيبة ، أنه على الرغم من الإصرار على أن تكون اللاتينية هى اللغة ، فإن معظم هذه القوانين الأخيرة صدرت باليونانية ، حتى « يحسن الأهالى فهمها » ، على حين أن العقوبات مهما اشتدت ، لم تستطع الحيلولة دون ظهور فيض من الشروح والتفسيرات اليونانية للموجز القانونى (Pandects) والدساتير التى لا سبيل الى تبديلها .

وفى الغرب ، لم يكد الناس يحسون بالآثر المباشر لمجموعة قوانين جستنيان . إذ لم يكن القانون الرومانى معروفاً إلا عن طريق القانون الذى أصدره قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة ألامريك ملك القوط الغربيين ، ولم يكن إلا مصنفاً عملياً وضع ليستخدمه رعاياه فى غالة وأسبانيا، وفيه وفق المشرع بمهارة بين المفاهيم القانونية الرومانية البسيطة وبين ظروف الزمان والعرف القبلى

لدى القوط . ولم يشرع الناس في دراسة مجموعة قوانين چسنتيان دراسة منتظمة في بروقانس ولومباردى ورافنا وبولونيا إلا في أثناء القرن الحادى عشر. على أن القانون الرومانى لم يقتصر تأثيره فحسب على المناطق التى يغلب على سكانها الطابع الرومانى ، بل امتد أيضاً إلى ما استلزمه نمو التجارة ودعوى الكنيسة وانتعاش الفكر القانونى من فروق بالغة الدقة ، ومن أنماط منطقية أكثر . وقد أصبح القانون فى الأزمنة التالية سلاحاً قوياً فى يد كل أمير طموح أو أسقف جشع ، يحاول الاعتداء على قيود الإقطاع بأنخاذه لنفسه ما كان لإمبراطور چسنتيان من الامتيازات الاستبدادية .

الوثنيون والهرطقة

ولعل الاستبداد الذى عنه نتحدث قد نجلى فى أعظم صورة فى فك الكنيسة ، حيث أدى إلى ما يسمى أحياناً باسم « الاستبداد الروحى الدينوى » . ولم يقنع چسنتيان بتنظيم الكنيسة بما أصدره من تشريعات مفصلة؛ إذ كان يعمد فى المنازعات المذهبية إلى أن يستخدم إلى أقصى حد حقوقه كإمبراطور فى عقد المجامع الدينية وتعيين الحدود العقائدية وكان وزراء الإمبراطور يرأسون الجلسات ، وكان الرسل ينطلقون من القصر وإليه ، وإذا كان بالقرار شئ من الشك ، لجأ الإمبراطور فى بعض الأحوال إلى التدخل بشخصه . ومع أن الكنيسة والدولة كانتا منفصلتين من الناحية الرسمية^(١) ، فالواقع أنهما كانتا شيئاً واحداً ، هذا إلى أن الاعتبار السياسية كانت الرائد الأساسى لچسنتيان على طول الطريق الذى قادته فيه من قبل مصالحه

(١) القانون الجديد . ٦ ، Praef (عام ٥٣٥ للميلاد) .

اللاهوتية . وكانت « وحدة الإمبراطورية » في المقام الأول بين هذه الاعتبارات ؛ ولا تتحقق الوحدة إلا بوسيلتين : القوة والمصالحة . ولو تأملت المعاملة التي كان يلقاها المراطقة لوجدتها تجمع بين الطريقتين ، وتعتبر في الوقت ذاته مثالا للوسيلة التي اختلطت بها الأمور السياسية والاعتقادية في السياسة الإمبراطورية . فالمعروف من الناحية النظرية أن المتهرطق إنسان فقد كل ماله من حقوق ، العامة منها والخاصة . قال الإمبراطور : « من العدل أن نحرم من متاع الدنيا كل من لا يعبد الإله الحق » . ولكن الواقع المعمول به ، هو أنه كان هناك كثير من الفروق والدرجات . فمن اليسير سحق كل الهرطقات التي ليس لها أهمية سياسية . فكان الموت هو العقوبة الوحيدة للمناويين ؛ وكانت العادة في شأنهم أن يحرقوا أحياء . أما الوثنية وهي ، في جل شأنها ، بقايا ضئيلة لخرافات متناثرة ، فكانت تؤخذ بالشدّة . على أن المعتقدات القديمة كانت لا تزال متوطنة في الأودية المنعزلة والمدن المنقطعة على التلال ؛ ففي بعلبك مثلاً كانت مناسك عتيقة سحيقة القدم لا تزال تقام بمعبدها ، كما أن أمون المشتري كان لا يزال يدلى بنبوءاته في الصحراء الليبية ، على الرغم من تراجعه إلى واحة صعبة المرام ، حيث كان يعبد فيها مع الإسكندر الذي أضحي آنذاك إلهاً . وقد حول هذا المزار المقدس إلى كنيسة القديسة مريم ، وتحول أيضاً معبد إيزيس بجزيرة فيلة إلى كنيسة مسيحية . ولم يبرح الوثنية أنصار بين الطبقة المتعلمة ، ولذا تعرضوا للقوانين الصارمة . فلم يعد يجوز لهم الميراث ، أو إبرام العقود ؛ وحرم عليهم تولى أى منصب ، إلا ما يعد توليه عقوبة في حد ذاته مثل عضوية مجالس المدن (Curia) . وأسفرت التحريات بالقسطنطينية عن كثرة الوثنيين بين ذوى المسكاة ، كالأطباء وأساتذة الجامعات ، فتعرض كثير منهم للجلد والسجن .

وفي فلسطين كان اليهود قد فقدوا مركز عصيانهم . وخضعوا رغم احتجاجهم للمراسيم التي أصدرها الإمبراطور بتنظيم متون كتبهم المقدسة ؛ على أن السامريين — وقد أثارتهم الضرائب الباهظة ، وفسخهم اضطهادات المسيحيين لهم — عمدوا إلى إشعال الفتنة فوق رؤوس تلالهم ، فالتحنت حيالهم من الإجراءات التأديبية القاسية ما كاد يفنيهم . وفي الغرب ، كانت الاعترافات السياسية أبرز من هذا قليلا . إذ تقرر حرمان الدوناتيين بإفريقية من ممتلكاتهم وكنائسهم ؛ فكانوا من ثم صفاً واحداً متحالفاً مع القوى المناهضة للإمبراطور . وكان رجال الكنيسة الأريوسية منظمين تنظيمياً قوياً ، وكان جستنيان ميالاً إلى الإبقاء عليهم على شريطة أن يمتنعوا العقيدة السلمية المقررة ، ولكن كراهية الكاثوليك لهم كانت حادة لا تلين بمدى لاقوه منهم من شديد العناء ، خاصة وأن البابا كان يؤيد هؤلاء الكاثوليك . ولما استجاب جستنيان لمطالبتهم بالانتقام من الأريوسيين . وفي إيطاليا ساعدت عوامل أخرى على الاستيلاء على كنائس الأريوسية . واتخذت ميولهم نحو القوط ذريعة يتعمل بها أعداؤهم ، كما كانت ثرواتهم الضخمة حافزاً لحسام الناهيين .

مذهب الطبيعة الواحدة

وكان لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysites) وضع مختلف تماماً . فإنهم كانوا يسمون حتى (٥٤١) باسم « المترودين » ، وكان جستنيان يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخواناً خاطئين . ثم واقام بعد ذلك بإجراءات بالغة الشدة ، غير أنه كان دائماً يلوح لهم بالوفاق . وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية . فمن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى ، اللتين تعتبران العمود الفقري

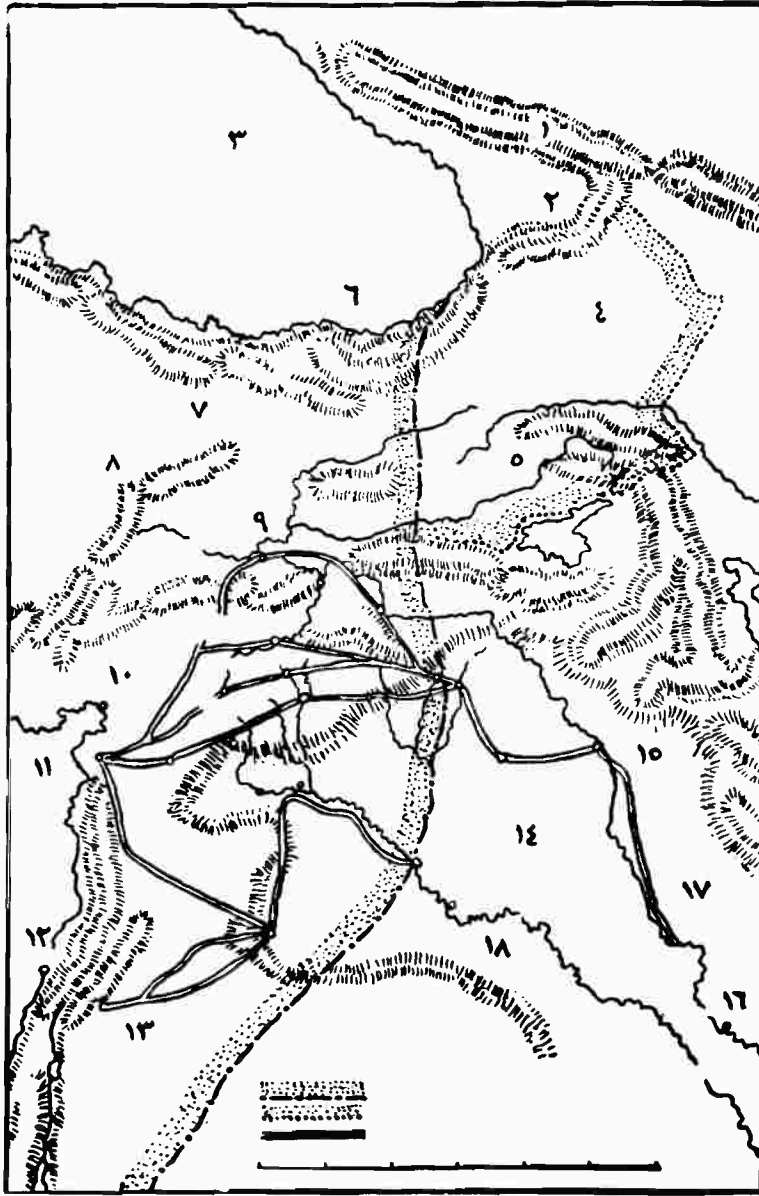
لميزانية الإمبراطورية . ومن جهة أخرى استقرت المعارضة الكاثوليكية بالقسطنطينية ، ويتزعم الجميع البابا — تؤيده الغالبية العظمى من أساقفة الغرب . على أن الاحتفاظ بولاء الشرق وتبعيته ، بعد أن تهددته فعلا المصالح المتضاربة والعداوات القومية ، دون ضياع تأييد الغرب الذي تم فتحه حديثاً ، كان يعتبر عملاً عسيراً ، ربما كان لا رجاء فيه . ومهما تكن الحال ، فإن سياسة جستنيان المعقدة لم تكن غير جذيرة بإمبراطور عظيم . ولقى جستنيان في هذه السياسة مساندة صادقة من ثيودورا المعروفة بميولها نحو مذهب وحدة الطبيعة . وأظهرت السنوات الأولى من حكمه أنه كان على استعداد للتراجع عن الموقف الكاثوليكي المتطرف الذي اتخذته جستين . وتوقف اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة (Monophysites) في (٥٢٩) وأعيد المنفيون . وفي (٥٣٢) انعقد مؤتمر في بيزنطية . غير أنه أخفق في التوفيق بين الفئتين ؛ ولكن جستنيان لم يفقد الأمل ، وإن شعر أن الحكمة تقضى بإصدار مرسوم يعلن تمسكه بالعقيدة الرسمية السليمة رغبة منه في طمأنة البابا . وفي (٥٣٥) كان نجم أصحاب الطبيعة الواحدة في صعود . وتمين أحدهم وهو أنثيميوس أسقفاً للقسطنطينية ، فبادر إلى الاتصال ببطريركي الإسكندرية وبيت المقدس . وفي تلك الأثناء كان يوحنا من تلاس (Tellas) ، وهو مبشر شديد الحماسة ينشر مبادئ وحدة الطبيعة في أثناء طوافه بأسيا الصغرى ، وهرع رهبان وحدة الطبيعة إلى العاصمة ، وأقبل الناس على تعميم أطفالهم في كنائس وحدة الطبيعة ، وفي تكريم قسوس مذهب وحدة الطبيعة الذين يحلون بهم ضيوفاً . على أن السنة التالية شهدت تغييراً كبيراً . ذلك أن البابا أجاييتوس وصل إلى بيزنطة في سفارة من قبل القوط الشرقيين . فلم يلبث حتى أصدر قرار الحرم على أنثيميوس ، وتمكن بمناصرة الحزب الكاثوليكي من عقد مجمع ديني تقرر

فيه خلع أنثيمبوس وبعض الأساقفة ، ثم حل جستنيان بعد ذلك على التصديق على القرار . ومن ثم بدأ الاضطهاد للمرة الثانية . وطورد رهبان وحدة الطبيعة في سورية وأرمينية وأرض الجزيرة وحرّموا من الطعام وضربوا بالسياط وأحرقوا أحياء في الأسواق . وقبض أفرايم أسقف أنطاكية على يوحنا التلاسى وأمر بإعدامه بالتمذيب البطيء . ثم مات البابا بعد ذلك بقليل ، ولكن قاصده الرسول القدير بيلاجيوس كان يحظى بنفوذ ضخم في البلاط البيزنطى . وحتى مصر نفسها فرض فيها الخضوع مؤقتاً لقرارات خلقونية على الأهالى الذين مس الوجل قلوبهم .

وعندئذ قامت ثيودورا بحركة انتقامية درامية . إذ إن روما التى احتلها وقتئذ بليساريوس ، أجبرت على قبول تعيين الشماس اللين المريكة فيجيليوس مرشح ثيودورا بابا جديداً عليها . وانتعشت من جديد آمال جستنيان في وحدة الشرق والغرب . واسترد حزب الطبيعة الواحدة في بيزنطة مركزه . وقام يعقوب باراداثيوس الراهب المونوفيزيى الدهوب ، وهو الذى تنتمى إليه الكنيسة اليعقوبية — بالدعوة التبشيرية التى سبق أن قام بها يوحنا التلاسى بآسيا الصغرى ، وفاق سلفه فيما ظفر به من نجاح . ومنذ تلك اللحظة حالف الحظ أتباع الطبيعة الواحدة وازداد نفوذهم حتى وفاة ثيودورا في (٥٤٨) . وبلغ الكفاح ذروته في المسألة الشهيرة المسماة « بالفصول الثلاثة » التى دامت من (٥٤٣ — ٥٥٤)^(١) . وبفض النظر عن المؤامرات التى ارتبطت بها هذه المسألة ، فإنها تعد مرحلة جديدة في سلسلة الجهود الطويلة المبذولة لتوفيق بين الشرق والغرب ، والتى ابتدأت برسالة الاتحاد لزينون وانتهت بالحل الذى

(١) أنظر التذييل ب في آخر الكتاب .

اقترحه هرقل وهو نظرية « تجمد الروح القدس Monergism » . ولم تلبث الأقاليم المونوفيزية أى المؤمنة بوحدة الطبيعة أن انتقلت بعد ذلك إلى سيطرة المسلمين ، وبذلك لم يعد ثمة ما يدعو إلى مناهضة النزعات الانفصالية في سوريا ومصر . ولا شك أن ما اتبعه الإمبراطور من وسائل لتحقيق سياسة اتحاد الدولة سياسياً ودينياً ، والتي لا بد لكل إمبراطور أن ينتهجها ، يعد شيئاً جديراً بالاهتمام . واستهل جستنيان النزاع بقرار أصدره في (٥٤٣) بإبطال « الفصول الثلاثة » . وكان يرجو موافقة البابا على تصرفه ، غير أن البابا فيجيليوس وقد استقر في الكرسي الرسولى ، لم يكن ليقبل المذلة . فكان لابد من اختطافه وحمله إلى بيزنطة وتعريضه لأنواع مختلفة من التهديدات والإهانات حتى رضى في (٥٤٨) بإنكار « الفصول الثلاثة » . وكان إصداره حكمه (Judicatum) على هذا النحو سبباً في إثارة عاصفة من الاحتجاج بين أساقفة إفريقية ودالماتيا وإليريا ، وفي (٥٥٠) أذن له جستنيان بسحب « حكمه » على أمل النجاح في هذا السبيل بوسائل أقل عنفاً . فلما أن جبط رجاءه ولم يتحقق منه شيء عاد فلجأ إلى القهر فعذب الإفريقيين وأساء معاملته فيجيليوس الذى لم يكن في الحقيقة إلا سجيناً في بيزنطة ، وكان ذلك عاراً وفضيحة عند المؤمنين . واشتدت العلة بالبابا فيجيليوس فلم يلبث في (٥٥٤) أن أذعن ، فأعلن آخر الأمر بطلان « الفصول الثلاثة » . وعندئذ حاول جستنيان أن يفرض إرادته على الأسقفيات الغربية ، ولكن إيطاليا أظهرت العناد . وخلف فيجيليوس على الكرسي البابوى بيلاجيوس ، القاصد الرسولى بيزنطة ، الذى كان تزحزح قليلاً عن موقفه الكاثوليكي ليهدي من نائرة جستنيان.



(٨) خريطة الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية

- | | | |
|--------------------------------|---------------------|------------------|
| ١ - جبال القوقاز | ٢ - لازيكا (كولخيس) | ٣ - البحر الاسود |
| ٤ - أيريا | ٥ - أرمينيا | ٦ - طرايزون |
| ٧ - بنطش الكبادوكية | ٨ - أرمينيا الصغرى | ٩ - كوماجيني |
| ١٠ - كيليكيا | ١١ - أنطاكية | ١٢ - بيروت |
| ١٣ - دمشق | ١٤ - أرض الجزيرة | ١٥ - الموصل |
| ١٦ - اكتيسفون (طيسفون) المدائن | ١٧ - دورا | ١٨ - الفرات |

على أن أساقفة شمال إيطاليا ، وقد امتلأت قلوبهم بالغيرة والحمية لما صدر من الكرسي الرسولي بروما من اعتداءات ، اغتسموا الفرصة ، فقطعوا ما يربطهم به من علاقات ، ودام هذا الانشقاق الصغير حتى نهاية القرن السابع .

وجملة القول أن جستنيان قد أخفق . فظل الشرق منشقاً عليه ، أما الغرب ، فإنه على الرغم من خضوعه ظل غاضباً متذمراً . وأخذت الحمسات المنذرة بالنور تملو وترتفع في الأذان . وصرح فاكوندوس بإفريقية قائلاً : « إن المسيح وحده هو الملك والقيس . أما الإمبراطور فينبغي له أن ينفذ قانونات (Carolis) الكنيسة وليس من شأنه أن يتبناها ولا أن يتعدها » . ومع ذلك فإن ما اتخذته جستنيان من مثل أعلى للوحدة كان عظيماً : وينبغي ألا يغرب عن البال عند تقدير سياسته نحو الكنيسة ما يعتبر فيما يبدو أروع مظهر لها ، وهو البعثات التبشيرية في الخارج ، التي حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوروبا إلى الشرق الأقصى ، وأقامت التقاليد التي استمرت طوال العصور الوسطى ، ووهبت صقالبه روسيا ودول البلقان من تراث الفن والعلوم ما يضارع في أهميته ما أسدته روما للأمم الغربية من العلوم والفنون .

البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية

ومن آثار سياسة جستنيان إتياديه ، الإفادة من التجارة والتبشير والديبلوماسية مجتمعة . وأكثر ما يظهر ذلك في بلاد الغرب حيث تصادف قيام أوجه شبه عجيبه بين السياسة البيزنطية وبين السياسة التي تنتهجها الدول العظمى في الشرق الأدنى في العصور الحديثة . إذ امتد من دمشق إلى خليج

العقبة خط طويل من الأسقفيات ، كانت فيها بصرى والبتراء حاضرتين لمطرانيتين . ثم تجيء بعد ذلك الصحارى وساحل البحر الأحمر وبلاد الحجاز ، وإلى الجنوب من ذلك بلاد حمير ، وكانت تقيم بها جاليات يهودية كثيرة ، وقد تخلى معظم الحميريين عن عباداتهم البدائية واعتنقوا العقيدة اليهودية . ورسخت قدم المسيحية في الخليج الفارسي بعد أن انتشرت من فارس التي ازدهرت بها أسقفيات عديدة ، بل لقد تغلغلت إلى اليمن وإلى نجد داخل الجزيرة العربية . وتصادمت المصالح الفارسية والبيزنطية في هذه المناطق بعضها ببعض ، وذلك لاهتمام كل منهما بالتجارة الساحلية والهندية . وحدث قبل انتهاء القرن الخامس بفترة طويلة ، أن بيزنطة عززت جهودها الدبلوماسية . وشجعت حاكم أفسس (الجبشة) على المطالبة بمملكة حمير ذاتها . ثم اعتنق المسيحية ، ويرجع إلى هذا التاريخ قيام الكنيسة الجبشية التي لا تزال باقية إلى اليوم . وبفضل مساعدة بيزنطة ، امتد سلطان أفسس على حمير سنوات عديدة ، على أن هذه البلاد كانت من البعد عن بيزنطة ما يجعل مساندتها لها ضئيلة الأثر . وفي قريب من (٥٧٠) سُمِتَ فارس من مؤامرات بيزنطة فاستولت على تلك المنطقة (بلاد حمير) ، وظل يحكمها حتى ظهور الإسلام مندوب فارسي . ولعب المبشرون المسيحيون بصعيد مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية . ذلك أن بعثة مونوفيزيتية حملت النوباد وهم قبيلة بدوية شرسة على اعتناق المسيحية حوالي سنة (٥٤٠) ، ثم استخدموا السكج جراح جيرانهم البليمين الذين هم أشد شماساً ، حتى طردوا إلى الصحراء ، فحل محلهم النوباديون على الحدود . ويبدو أن لونجينوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اجتاز تلك المناطق حوالي عام (٥٧٨) في أثناء رحلاته التبشيرية وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا . وغنى عن البيان ، أن الإحساس بالفوارق الطائفية لا يكون بالغ الشدة في معالقات الإمبراطورية الأممية ، وعرف جستنيان كيف يختار خير الرجال ، وكان

يبنل لأنصار مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيين) الذين يعملون في مجال التبشير من التأيد ما لعله كان يتردد في منحه لهم لو كانوا أقرب إلى دياره .

لقد كان الراهب جزءاً أساسياً في ديپلوماسيته . فكم في بلاط بربرى أضحى فيه القسوس البيزنطيون مستشارين موثوقاً بهم لدى الملك ، ومسيطرين على النساء الحريصات بفطرنهن على اعتناق دين ينطوى على الأسرار ، على حين أنه جاء في أعقاب المسيحية ثقافة جديدة ودنيا جديدة من الأفكار . ولم تكن الديپلوماسية تعوزها أيضاً الوسائل المادية . فإن شيوخ البربر كانوا يفخرون بارتداء البرنس زياً للاحتفالات الرسمية وبالتيجان والقلادات والأوسمة وأحذية الأرجوان التي ينعم عليهم بها جزاء ولائهم . ولأسباب من هذا القبيل ، تقرر تعيين ملك لازيقا ببلاد القوقاز ، قائداً بالحرس الإمبراطورى . وأنعم على حكام آخرين بزوجات من العائلات البيزنطية النبيلة وكثيراً ما كان أبناؤهم يرسلون لتلقى تعليمهم في البلاط الإمبراطورى . ثم إن الوسائل الرومانية التقليدية لم تضب عن بال القوم . فإن المنفيين السليبيين والأفراد المتنافسين والمطالبين بالعروش والمغامرين كانوا يشجعون على زيارة العاصمة ، ويزودون الدولة بحجة حاضرة تندرع بها بيزنطة للتدخل في الشؤون الداخلية لبلادهم . وكانت الأراضي والإعانات المالية تمنح بسخاء وسرف ، ودأبت بيزنطة على أن تمارس السياسة المجرية التي تقضى باتخاذ لص للقبض على لص^(١) ، فكانت الدولة تؤلب شيوخ المغاربة بعضهم على بعض . وكانت تناصر الفرنجة على القوط ، وكانت تستعين باللومبارد لسكبج جماع الجيبيد ، وبالمون لمناهضة البلغار ، وبالأفار للتغلب على الهون .

(١) انظر ص ٩٠ ، ٩٨ ، ١١١ .

الحدود الشرقية

على أن الدافع عن الحدود الشرقية الطويلة هياً الفرصة لاستخدام هذه الوسائل جميعاً . ومن خلف تلك الحدود كانت تقع الإمبراطورية الفارسية العظيمة ، وهى الدولة الوحيدة التى كانت بيزنطة تعاملها معاملة الند . وقد أثمرت الخصومة الطويلة الممتدة أجيالاً بين الدولتين تفاهما متبادلاً ، بل لقد أدت إلى نشوء اقتراحات بإقامة ضرب من « السياسة العالمية المشتركة Weltpolitik » . وقد صرح سفير فارس فى إحدى المناسبات بأن « الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية كانتا أشبه بمنارتين تهديان العالم . ومن ثم فقد وجب عليهما أن يتآزرا بدل أن يتهاجما » . وكتب كسرى إلى الإمبراطور موريقيوس يقول : « هما للعالم بمثابة العينين للإنسان » . ويتضح للقارىء من عرض مختصر لجغرافية هذه المنطقة أن التضاريس الطبيعية قد قامت بدورها فى الإبقاء على خط الحدود بين الدولتين ثابتاً إلى حد ما ، وأسهمت أيضاً مثلما تفعل اليوم فى تنظيم الوسائل الكفيلة بالدفاع عن هذه الحدود . فى الشمال كانت بلاد القرم مفتاح نظام الدفاع الذى أقامه جستنيان إزاء ما يصدر عن السهوب من تهديد ، فأمن فى تحصينها وشحنها بالحميات . ومن هذا الموضع تفرعت خطوط التجارة ومارست بيزنطة نفوذها على جنوب روسيا . وكان القوط بقبائلهم الأربعة (Tetraxite Goths) النازلون إلى شمال القرم مباشرة حول بحر آزوف ، قد اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد ، وربطهم الخوف من الهون ربطاً وثيقاً بالإمبراطورية . وإلى الغرب ، بين نهري الدون والدانوب ، ينزل الهون الكوتروجوريون ، الذى تنصر ملكهم جروود (Grod) ، بينما كان جستنيان نفسه يقف إلى جوار حوض المعمودية عراً أبالهُ . على أن نزولهم على البحر الأسود كان مصدر خطر ، ومن ثم لقي الهون الأوتريجوريون الذين أقاموا شرق الدون ،

ويعمدون أقل خطراً لأنهم أكثر بعداداً ، — التشجيع من بيرنطة على مهاجمة ذوى قرباهم . وعند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأسود ، تقع بلاد كوثليس التى رحل إليها جاسون (Jason) يوماً ما طلباً للفروة الذهبية . وقد فسرت هذه الأسطورة على أنها رواية شعرية عما يجلب إلى البحر الأسود عند تلك النقطة من الهند والصين من تجارة غالية الثمن . وسواء أكان طريق القوافل مستخدماً عبر آسيا الصغرى فى ذلك التاريخ المبكر أم لم يكن معروفاً ، فإنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن لازيقا — وهو اسم ذلك الإقليم وقتذاك — كانت ذات أهمية قصوى لحراسة رأس الجسر عند أقصى نقط الاتصال شمالاً بين أوروبا والشرق الأقصى . وكانت تحسدها فارس التى لم يكن لها فى تجارة الحرير الضخمة إلا دور الوسيط بل إنها أدركت أن دورها تعرض لتهديد طريق آخر يمر فى شمال ممتلكاتها . ولأسباب مشاكلة لهذه عزم جستينيان على المحافظة على ما كان له من نفوذ حاسم على « لازيقا التابعة لنا » ، كما أسماها سبباً منه للحوادث . إذ إن قيمتها التجارية كانت عظيمة الأهمية : لأنها كانت تزود الإمبراطورية بالفراء والجلود والرقيق ونحصل منها على الملح والحر والقمح . وكانت من الناحية العسكرية ذات موقع يناسب الدفاع أبلغ مناسبة . وكانت بما قيض لها من جبال مكسوة بالغابات وممرات ضيقة ، تزود الدولة بمجازيحول دون غارات الهون من الشمال ويمنع فارس فعلاً من الوصول إلى البحر الأسود . وحدث فى زمن الإمبراطور جستين الأول أن ملك لازيقا قدم فعلاً إلى القسطنطينية يطلب التنصير وتزوج من امرأة بيزنطية وسمح بنزول حاميات بيزنطة فى قلاعه . وواصل جستينيان هذه السياسة ، مؤيداً الملوك على النبلاء المتمردين ومناهضاً نفوذ الفرس ، وعلى الرغم من النكسات المؤقتة استطاع المحافظة على سيطرته لا على لازيقا فحسب ، بل على كثير من القبائل القوقازية الأخرى أيضاً مثل الأباجية (Abasgi) والهون

السايبيرية الذين كانت ييديم « أبواب قزوين » ، التي كان أى مغير شمالي يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة . على أنه لم يصل إلى مثل ذلك الحد من التوفيق في إيبيريا (وهى جورجيا الحديثة) ؛ إذ إن موقعها الجغرافى جعلها تعتمد على فارس . وفى الجنوب منها كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تسيران جنباً إلى جنب على امتداد حدود الفرات . وكانت مشكلة الفرات مصدراً لتناعب روما مدة خمسة قرون ونصف . فهل كان الفرات حقاً خير خط للحدود ؟ الواقع أن مجراه كان بالغ الاختلاف عن مجرى نهري الراين والدانوب ، اللذين كانا بصورة إجمالية غير مدققة — بمصران متصلات روما فى أوروبا . أما الفرات فكان لا يجرى حول أرمينية ولا يجمبها ، بل الأمر على العكس ، فإن الهضبة الأرمينية تحصر المنابع العليا لكل من الدجلة والفرات ، وبذلك جعلت وجود خط للحدود من أصعب الأمور . ومن ناحية أخرى ، كانت أراضي النخوم على الراين والدانوب مناطق زراعية ، وكانت مفتوحة للنفوذ الرومانى ، كما كان الوصول إليها من العاصمة ميسورا . على حين أن الفرات كان يفصله عن سوريا صحراء مترامية ؛ ومن ثم كان نقل الجيوش إليها أشق وأصعب ، وكانت الميزة كلها فى جانب الدولة الشرقية (فارس) ، التي كانت رحلتها إلى الحدود أقصر وطريقها إليها فى أرض خصبة ، وتوافر لديها من الطرق المؤدية ما يفسح لها مجال الاختيار . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الفرات ، كان بدلاً من الدوران حول الحدود الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، ينساب مباشرة نحو الجنوب فى جوف الممتلكات الفارسية . ومن الجلى أن الهيمنة على النهر من المصب إلى المنبع كانت أمراً مستحيلاً ، وأن روما لم تحاول أن تفعل ذلك مطلقاً . على أن الحد الجنوبى قد ثبت فعلاً عند ملتقى الجابور (قرقيسيا) ، وهو الموضع الذى يدخل عنده الفرات أرض الصحراء . وبذلك عدة محاولات

للعثور على حلول أخرى للمسألة ، مثل اتخاذ خط دجلة مثلاً ؛ ولكن لم يكن ثمة بديل صحيح سوى غزو فارس ذاتها . على أنه لم ينجح في هذا الأمر من قادة الغرب سوى الإسكندر الأكبر . ويبدو أن أوغسطس راودته تلك الفكرة يوماً ما ، كما أن تراجان وجوليان وأباطرة آخرين قد اتبعوا سياسة جادة وجريئة في تلك الأصقاع . على أن الحد الشرقي ظل ثابتاً على وجه الجملة منذ نهاية القرن الرابع حتى الفتح العربي . وأدركت روما أن النصف الجنوبي من صحراء إقليم الجزيرة ، ليس في وسع دولة غربية الاحتفاظ به . أما الشطر الشمالي ، فلا محيص من المحافظة عليه ، نظراً لأن هذه المنطقة ، كان يقطعها خط عمودي يمتد من آمد على نهر دجلة إلى قرقيسيا على نهر الفرات . وكانت أرمينية مفتاح الموقف ، كما أن جغرافية البلاد أظهرت في النهاية أنها العامل الفاصل في هذه المشكلة . وهنا أيضاً حاولت كل من الإمبراطوريتين عرض حلول متنوعة ، تتراوح بين ضم أرمينيا بأكملها إليهما وبين السيادة المقنعة بأن يتولى أمرها قواد وموظفون أو أمراء تلقوا تعليمهم في العاصمة . ثم اتفق الطرفان آخر الأمر على تقسيمها^(١) . ولم تحصل روما من ذلك التقسيم إلا على ربع أرمينية ، غير أنه كان أهم شطر يخدم أغراضها ، لأنه كان يشكل منطقة خلفية تمد ظهراً قبا لإقليم بونطش القبادوقى . وتؤلف في الوقت ذاته قاعدة للتحكم في لازيقا . على أن التقسيم لم يضع حداً لمؤامرات أى من الجانبين ؛ فإن أرمينية بكنيستها الزاهرة وأسواقها العظيمة التي كانت تجتنب التجار من أوروبا وآسيا وبشمها المقاتل ونبلائها الطموحين ، كانت مسرحاً هياً الفرص الوفيرة للتصادم بين مختلف المصالح وبين دهاء الدبلوماسية .

(١) انظر ص ٤٣ . وفي القرن التاسع أصبحت أرمينية مرة أخرى عظمة يتنازع عليها العرب وبيزنطة .

روما وفارس

ومن الجلى أن دواعى الاحتكاك لم تكن تعوز الحدود الشرقية ، كما أن الاضطرابات الداخلية كانت على الدوام مشجعة للإمبراطورية المعادية على تجديد القتال . وقد فقدت فارس هيبتها منذ منتصف القرن الخامس . إذ تنازع على وراثة العرش أمراء كثيرون متنافسون ، على حين أن البيت المالك نفسه كان يتهده خطر الأرستقراطية ورجال السكهنوت ، هذا إلى أن الاضطرابات الدينية والاشتراكية التى أثارها أتباع مزدك قوضت الاستقرار فى البلاد . كما أن غارات السلب التى قام بها الهون على الحدود الشمالية الشرقية أثارَت متاعب خطيرة . ومن ثم اتبع جستين سياسة الهجوم . فأوقف ما كان يؤديه للفرس من أموال لصيانة قلاع القوقاز وإعالتها ؛ وأخذت الدولة تعبث باللازيقيين والإبيريين ، وقامت بهجوم صريح على نصيبين معقل الحدود الحصين العظيم . ولم يعد مفر من نشوب القتال . وشهد عام (٥٢٧) اندلاع نار الحرب الفارسية الأولى . وعاثت الجيوش الفارسية فى سوريا نهباً وتخريباً ، ولكن أضرار ذلك لم تكن بالغة ، وعندما توفى قباد ملك فارس فى (٥٣١) وقد بلغ الخامسة والسبعين ، بادر كسرى أنوشروان الشاب الحريص على الظفر بالعرش ، بعقد صلح أبدى مع بيزنطة . ومع ذلك فإن الموقف كان قد تغير تغيراً كاملاً ، إذ إن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقى الناجح . وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال . وما انصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة فى معالجة الأمور ، مد حدود إمبراطوريته فى أثناء مدة حكمه الطويل (٥٣١ — ٥٧٩) إلى نهر جيحون (أموداريا Oxus) بوسط آسيا وإلى اليمن جنوبى بلاد العرب . ثم اغتتم الفرصة التى سنحت فى (٥٤٠) . وذلك أن جستينيان جرد الحدود الشرقية للدولة

من الجند لبؤاف القوة اللازمة لفتوحه في الغرب ، على حين سئمت لازيقا وأرمينية سيادة بيزنطة عليهما واستمرت الحرب الفارسية الثانية من (٥٤٠—٥٤٥) . وأغارت جيوش فارس على سورية ونهبت أنطاكية في سنوات متعاقبة ، ثم احتلت لازيقا . وأحست كوماجيني (Commagene) وأرمينية وأرض الجزيرة بشدة وطأة الهجوم الفارسي . وأسفرت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع جستنيان تعويضاً ضخماً ، غير أن القتال ظل مستمراً متنازراً في بعض أرجاء لازيقا وبين أتباعه من العرب في الشام . ولكن المسألة لم تحسم ، وفي (٥٥٥) عقدت هدنة أخرى ، أعقبها في (٥٦١) سلام دام خمسين عاماً ، تعهد بمقتضاه الفرس بالجللاء عن لازيقا مقابل إعانات مالية طائلة . وعلى الجملة احتفظ الطرفان بما كان موجودا من قبل من الأوضاع القائمة (Status quo antea) .

ومن العجيب أن الأساليب التي تتبعها الدول الإمبريالية بتلك المنطقة لم تتغير إلا قليلا ، فإن خطط روما وفارس الحربية ذات مشابهة عجيبة لخطط تركيا وروسيا وبريطانيا في العصور الحديثة . ومن الأمثلة الواضحة ، ما اتخذته بيزنطة من أساليب في معالجة شيوخ العرب بسوريا . فالخارث بن جبلة شيخ الفسانية ، أصبح بمساعدة بيزنطة حاكماً على دولة عربية رومانية (ليكون مساوياً في القوة والسلطان للملك الحيرة الذي كان من أتباع فارس) . وقد رفع البيزنطيون قدر الخارث المعروف عندهم باسم أريناس — فجعلوه من البطارقة الأشراف ومنحوه إعانة سنوية ضخمة ، وصارت عاصمته بصرى مقراً لمطرائية تدخل في دائرة اختصاصها أجزاء من بلاد العرب وفلسطين . واستخدمت فارس تلك الوسائل عينها . ولو أنك اطلعت على تواريخ أميانوس أو بروكوبيوس لتحققت أن أوجه التشابه امتدت أيضاً إلى أساليب القتال الفعلي . وإنا لنجد نفس الخطط والخيال الحربية وفن الحصار

والاستحكامات ، بل الأسلحة متساهمة عند الطرفين . وتنجلى صنوف التشابه أيضاً في نتائج الحملات العظيمة . فإن فتوح الأباطرة أمثال تراجان (Trajan) أوجوليان لم تستمر طويلاً ، فإذا استولى الفرس على لازيقا التي تنكروها عليهم حتمية الأوضاع الجغرافية ، لا تنقضى بضع سنوات حتى يضطروا إلى إخلائها . ويغير كسرى على سورية ، ويعمل فيها الفساد حتى يبلغ شاطئ البحر المتوسط ، ويحمل معه جزءاً من الصليب المقدس . ثم يضطر إلى رده سريعاً ، وإلى طرد المغيرين من أرض بلاده . لقد تجمد الموقف بين الطرفين ؛ إذ كانت وسائل الدفاع أقوى من الهجوم ، ولم يختل التوازن بين الإمبراطوريتين إلا بعد ظهور الإسلام على مسرح الأحداث .

على أن نهاية حكم جستنيان الطويل كانت عبارة عن فترة شديدة العبوس . إذ إن ثيودورا توفيت في (٥٤٨) ، فلما حرم الإمبراطور المسن إلهامها ، نحل عنه ما اشتهر به من الحزم ، فأهمل شئون الإمبراطورية واستبدلها بالمناظرات والمجادلات اللاهوتية . وتغنى كوربيوس الشاعر الأفريقي الرشيد فقال عند الاحتفال بتولي الحاكم الجديد العرش « كل أفكاره كانت تدور حول السماء » فالمرسوم الأخير الذي أصدره في (٥٦٥) يدور حول شئون الكنيسة ، كما أنه حافل بالاقباسات من الكتب المقدسة ومن أقوال آباء الكنيسة الأول ، وهو أكبر شاهد على دراسته العميقة المستفيضة . ولم تقع منذ (٥٥٥) حروب منتظمة ، ونظراً للأزمات المالية ، ازداد تناقص عدد الجيش ، وتضاءلت كفايته . وأضحى الحد الفارسي مكشوفاً بالفعل ، ولم يعد يدافع عن بيزنطة ذاتها إلا رجال الحرس الذين ليسوا إلا حلية وزينة . وفي (٥٥٨) أُخليت معاقل الدانوب من الجند ، وأخذ سور أناستاثيوس الطويل يتداعى ويتحول إلى أنقاض . وأثارت مخاتلات جستنيان سخط الهون الكوتروجوريين فأنشالوا إلى تراقيا ، وتقدموا إلى أسوار العاصمة . وساد الذعر في أرجاء المدينة ،

ولم ينقذ الموقف إلا التصرفات السريعة التي باذر بالقيام بها بليساوريوس الجندي المحنك . وبعد ذلك بأربع سنوات قام الآفار بهجوم مماثل لهذا فرد بمشقة كبيرة . وذلك أن النفقات الطائلة التي أنفقتها جستنيان في إنشاء المباني وفيما شن من حروب وفي نفقة بلاطه قد استنزفت كل مافي الخزانة . فانحطت قيمة العملة وزادت الضرائب في عددها ووطأتها . وزاد في شقاء السكان أن رمام الدهر بعدة زلازل خطيرة متعاقبة ، اندلع على آثارها وباء الطاعون فيهم وأخذت الخدمات العامة في بيزنطة نفسها تنهار . وصرت بالناس في إحدى السنين أزمة في المواد الغذائية ؛ وفي أخرى تناقصت مياهها . وعاد الخضر والزرق سيرتهم الأولى من الفساد وبث الاضطراب في الشوارع ، ودار على الألسن حديث مؤامرة لقتل الإمبراطور ، على حين أن شخصين متنافسين اسم كل منهما جستنيان أخذتا يتآمران علناً على ولاية العرش .

أما جستنيان الذي بلغ وقتذاك الثانية والثمانين من عمره ، فجلس في قصره ينتظر منيته الدانية ، وهو لا يعبأ بكل ما يدور حوله من أشياء . ففي أعماق الليل ، وبما حجب إلى الشيخوخة من ميل إلى التكرار ، وفي براعة قوية ، طفق جستنيان ومعه بعض القساوسة المسنين يتدارسون ما يشغل الناس من مشاكل مثل دفن العظام ولغز تحلل جسد المسيح وفساده .

الفصل السابع

عواقب حكم جستنيان

لم يتكشف عمل جستنيان ويتبدى انهياره السريع مثلما تبدى في شمال إيطاليا . فإن اللومبارد انثالوا فجأة بعد وفاته بوضع سنوات في السهول الممتدة بين جبال الألب ونهر بو، ولم يلبثوا أن امتلكوا المنطقة كلها في زمن وجيز . والمعروف أنهم اجتازوا أوروبا على مراحل من موطنهم الأصلي في إقليم نهر الإلب . وعند نهاية القرن الخامس أصبحوا السلطة الحاكمة في هنغاريا ، ولم يلبثوا أن أصبحوا جيران روما على الدانوب بعد أن سحقوا الهيرول . وأفضى اعتناقهم للمسيحية على مذهب أريوس واتخاذهم وضعاً أكثر استقراراً ، إلى زيادة قوة الملكية ، كما هو الشأن عادة مع الشعوب الألمانية عندما كانت تتعرض على هذا النحو للمؤثرات الرومانية . على أن الثقافة التي حصلوا عليها في هذا الموضع كانت طفيفة جداً : إذ تجلّى للرومان بعد قرن كامل أنهم لم يبرحوا « برابرة » . فإن ملكهم وإن كان مطلق السلطان لم يكن أكثر من قائد حرب ينتخب للقيام بحملة واحدة . ولم يكن لديهم قضاة (Magistrates) ولا دستور ؛ وكانت عداوات النار ومنازعات الدم لا زالت تتحكم فيهم ، كما كانت الرابطة الحقة في المجتمع هي رابطة العشيرة . ومنذ رحيلهم عن منطقة نهر الإلب ، لم يستقروا بأرض واحدة ما يزيد على جيل واحد ، ومن ثم كانت زراعتهم بدائية بل إنهم حتى في هنغاريا نفسها تركوا العمل في الحقل للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضي جيرانهم .

الغزو اللومباردى

وكان اللومبارد والچيبيد حتى ذلك الحين هم القوى الأساسية على حدود الدانوب ، على أن جستنيان تمكن من الاحتفاظ بمدينة سريميوم التي تعتبر مفتاح المنطقة ، وذلك باتباعه سياسة روما التقليدية في تأليب الشعوب بعضها على بعض . ولكن دخول الآفار الحومة وهم قبيلة شرسة ذات أصول أسيوية هدم هذا الموقف من أساسه . فأتخذوا من اللومبارد مخلب قط ودمروا مملكة الچيبيد ، واستولوا على معظم البلاد وما فيها من غنائم . وعندئذ بات اللومبارد في محنة مؤسفة . إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، ولم يأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة في الأرض . واستبد بهم اليأس فأقسموا على ما يعتبر المرحلة الأخيرة في هجرتهم . ففي (٥٦٨) انطلقت جموع اللومبارد إلى إيطاليا بزعامة ألبوين (Alboin) ، وتزايد بمن انضم إليهم من مفاشرين من أجناس مختلفة . وتصادف أن استدعى نارسيس حاكم إيطاليا إلى بيزنطة في تلك اللحظة ، ولذا لم يبد المدافعون عن الحدود أية مقاومة فعالة فيما يظهر . فسقطت كينيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحتها اللومبارديون ؛ وغادر بطريك أكويليا مدينته المحتوم مصيرها وفر إلى مستنقعات جرادو . واحتفظت القوات الإمبراطورية بمدينتي بادوا ومانتوا حيث صمدوا عند خط نهر يو ، وحالوا دون انثيال اللومبارد إلى الساحل الشرقي ؛ ولكن ضاعت منهم فيشنزا (Vicenza) وفيرونا ، فانزلت منطقة الحدود في جنوب التيرول عن راقنا . وبعد ذلك بسنة دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل في النهاية إلى الاستيلاء على باثيا بعد حصار طويل فأصبحت عاصمة اللومبارد . فانفصل بذلك شمال إيطاليا عن الإمبراطورية ، ولكن ما خبأته الأيام بعد ذلك كان أسوأ وأنسكى . ففي السنوات التالية تعرضت راقنا وروما لتهديد مستمر ،

ونجح اللومبارد في القضاء على هجمات بيزنطة ورددها على أعقابها ، على حين أن جماعتين مستقلتين من اللومبارد زحفنا جنوبا وأسستنا دوقيتي اسبوليتو وبنقنتو .

وتوفي ألبوين وظل العرش من بعده شاغراً مدة تجاوزت عشر السنوات . غير أن الفتح واصله زعماء من أتباعه ، تولوا قيادة الحاميات المربطة بالمدن الرئيسية . وعلى مر الأيام أخذ هؤلاء « الأدواق » وهم حوالى خمسة وثلاثين دوقاً ، يستقرون رويداً رويداً بالجهات التى سبق أن احتلوها فتحوّلت « الدوقيات » إلى أملاك مستقلة استقلالاً كبيراً عن القوة المركزية . ولا يخفى أن ضعف الملكية الذى تسبب في هذا الاستقلال ، هو العامل الفاصل في التاريخ اللومباردى . فلو أتيح للقوم عاهل قوى لجاز أن يلزم بالطاعة دوقاته الخارجين على إرادته ، بل لقد كان في وسعه في حالات نادرة ، أن يسيطر على دوقيات الجنوب القوية . غير أن المرحلة الأولى لما أصابه الدوقات من الحرية ، كان لها أثرها . إذ إن لومبارديا كانت مملكة سادها دائماً الانقسام والانشقاق . ولذلك فإن أعداءها سواء كانوا من الأباطرة أو البابوات أو من المغيرين من الفرنجة ، كانوا يستطيعون دائماً الاعتماد على نبيل لومباردى ناثر . ولذا فإن فتح إيطاليا لم يكتمل على أيديهم بسبب افتقارهم التماسك . ولم يكن في وسع بيزنطة أن تدبر من الجند من تعزز بهم حامياتها ؛ وكانت البابوية لا تزال ضعيفة حتى ذلك الحين . وكان ضعف الملكية اللومباردية هو السبب الوحيد في إنقاذ القوات الإمبراطورية من الطرد من سواحل إيطاليا وفي الحيلولة دون انحدار البابا إلى منزلة أسقف لومباردى .

والمعروف أن غزاة إيطاليا السابقين — كانوا كما رأينا — يعدون السكان الرومان شركاء لهم في الإمبراطورية . على حين أن اللومبارد كانوا على العكس من ذلك يعدونهم رعايا ويعاملونهم المعاملة التى كان يلقاها في هنغاريا الصقالبة الذين كانوا

يفلحون الأرض لسادتهم المقاتلين . وجرّد أصحاب الأراضي الرومان من أملاكهم ، وأصبحت أرضهم وماشيتهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للفاتحين . ولكن الذي كان يريده اللومبارد لم يكن الأرض في حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش في تكاسل ودعة ؛ أو أداة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب . وبناء على هذا أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام للأرض ؛ ولذا يمكن القول بأن كل ما تغير هو المالك وحده . وأصبح الفلاحون الصغار (Coloni) يقابلون الطبقة شبه الحرة عند اللومبارد ، وهي المعروفة عندهم بالألد يوني (Aldiones) وشاركهم في هذا المصير فيما يبدو الفقراء من أصحاب الأراضي . واستولى الغزاة على ممتلكات الكنيسة دون رادع ، وذلك لأن الغزاة الأريوسيين لم يميلوا إلى احترام حقوق الكاثوليك . وبهذه العملية أصبح كل لومباردي حراً مقاتلاً ومالك أرض ، وعلى الرغم من أن مساحة الإقطاعات لم تكن متساوية ، فإن الأدواق احتفظوا بجانب كبير من الأراضي على أنها ضياع خاصة . وترتب على اجتماع عاملَي الاستيطان المستمر والتأثر بالنظم الرومانية أن تلاشت العشيّة رويداً رويداً ، وحلت محلها الروابط المحلية التي تترتب على امتلاك الأرض . فأصبحت الدوقية هي الوحدة ، وطابق اتساع هذه الدوقيات إجمالاً ، رقعة المناطق التي كان يحكمها فيما مضى الحاكم (Magistrate) والأسقف ، وقد ظلت المدينة الرئيسية هي مقر الإدارة . ومع ذلك فإن دوقيتي اسبوليتو وبنفتو احتلتا رقعة بالغة الضخامة والاتساع ، كما أنهما كانتا في الواقع إمارتين مستقلتين ، وذلك بعد أن عزلها عن اللومبارديين في الشمال نطاق من الممتلكات الإمبراطورية .

ولم ينته القرن السادس حتى صارت مملكة اللومبارد وطيدة الأركان بإيطاليا . فعادت الملكية على يد أوثاري ، وبفضل هذا الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارد بالمحافظة على أملاكهم ، بل بسطوا رقعة ممتلكاتهم

على حساب بيزنطة . وكان أخوف ما يخشونه من خطر في تلك المدة هو عدوان الفرنجة ، الذين دأبوا على الإغارة على شمال إيطاليا في غارات تعززها هجمات الجيوش الإمبراطورية من رافنا . وتمكن أوثاري (٥٨٤ — ٥٩٠) من القضاء على هذا التحالف الفرنجي البيزنطي ، الذي كانت تنزله في الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، مذ كان كل منهما يتهم الآخر حقاً وصدقاً بالعمل لمصلحته فقط . وبفضل هذا العمل الذي حققه أوثاري، تهيأ للومبارديا لمدة قرن ونصف من الزمان من الحرية ما مكنها من تركيز دفاعها على جهة واحدة .

إيطاليا البيزنطية

على أن الدفاع لم يكن كل شيء . إذ كان مركز الملك يتوقف على عدد أتباعه ، الذي كان يمكنه من منازعة أقوى أداوقه . ونظراً لأن الملك كان يعوزه نظام مالي منظم ، أصبح لزاماً عليه أن يكافئ هؤلاء الأتباع بما يبذله لهم من الأرض ، واقتضى ذلك بدوره المزيد من الفتوح . وكانت كل زيادة في عدد السكان اللومبارد تدعو إلى العمل في نفس هذا الاتجاه ، وذلك نظراً لأن كل مقاتل حر كان — مثلما حدث في إسبرطة — يعتمد من الناحية الاقتصادية على رقعة الأرض التي يملكها والتي يفلحها له الأرقاء . وكانت النتيجة أن شنت سلسلة مستمرة من الغارات على الممتلكات المجاورة ، وتحت هذا الضغط تحول التنظيم الداخلي لإيطاليا البيزنطية إلى نظام عسكري للدفاع ، في أثناء القرنين التاليين . وقد حرص جستنيان على أن يرجع لإيطاليا وإفريقية الأحوال الإدارية السارية في القرن الرابع ، التي بمقتضاها كانت السلطات العسكرية منفصلة فصلاً دقيقاً عن السلطة المدنية . على أنه مع ذلك قد آثر في بعض أقاليم الشرق الجمع بين السلطتين في يد موظف واحد، وهو تقليد ما لبث حتى تطور فأصبح ما عرف في العصور التالية باسم نظام « الأولوية Theme » .

وكان اتباعه هذه السياسة أمراً لا مفر منه ، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الغرب . إذ إن تهديد البرابرة أخذ يشتد سنة بعد أخرى ، ولم تقابل ذلك التهديد زيادة في الجهود والموارد تكفى لمواجهة وكسر شوكته . وترتب على ذلك أن صارت الاعتبارات العسكرية بالغة الأهمية . وأدى استمرار ظروف الحرب إلى الانحراف بجهاز الإدارة المدنية الذى اشتهرت به روما فى العصر القديم إلى النزعات الإقطاعية التى ظهرت بالقرون الوسطى . فالجندى صار أشد أفراد المجتمع أهمية ، والذى حدث فى إيطاليا ، هو أن طبقة عسكرية تبرز فى النهاية بوصف كونها إحدى الطبقات الرئيسية فى السكان الأحرار . وهذا المبدأ نفسه ينعكس أيضاً فى الحكومتين المركزية والمحلية سواء . فإن النائب الإمبراطورى الملقب بالإكسارخ ، وهو موظف يجمع بين السلطات العسكرية والمدنية كان يعين أول الأمر فى حالات الطوارئ الخاصة ، فلم يلبث أن صار حاكم إيطاليا الفعلى ، فحجب بذلك الوالى المدنى (Prefect) ، الذى اقتصرت دائرة اختصاصه على ما يتطلبه الإشراف المالى من أعباء . وتلاشى ببطء كل من المجلس البلدى وموظفيه إزاء تزايد سلطة القائد العسكرية التربيون (Tribunus) الذى أضاف إلى سلطته الأصلية أعباء قضائية وتنفيذية .

أصبحت إيطاليا وقتئذ منطقة من ثغور الحدود ، وأصبحت كل مدينة مسورة قلعة يتمتع بها أصحابها فى وجه أعدائهم . وكان الإكسارخ يوجه النظام الدفاعى من مركز قيادته العليا براقتا ، وهو نظام مركزى بالغ الإحكام ، تمكنت بفضل بيزنطة وقد ضغط عليها بشدة كل الآفار والبلغار من ناحية ، والماسفة المتجمعة — عاصفة الغزو العربى من ناحية أخرى — من الاحتفاظ بقبضتها على إيطاليا مدة قرنين تقريباً . وهو عمل عظيم جدير بالتنويه ، (١٤ — المصور)

نظرا للصعوبات الخاصة التي تجتمع في هاته الولاية . ولم تعد مصالحها هي مصالح العاصمة . إذ لم يكن مما يعنى النبيل الرومانى ولا الفلاح الإيطالى فى قليل ولا كثير ، أن تحتاج بيزنطة إلى الجند والأموال للحدود الشرقية . فكل ما كان يعنيهما مباشرة هو الخطر اللومباردى؛ مع تذكر أن القوات الإمبراطورية كانت غير كافية لمعالجة هذا الأمر ، وأن الدولة كانت ترسل الجند والمعونة المالية بين حين وآخر تنفيذاً لهذا الهدف . ومن ثم أصبح من الضرورى تحميل إيطاليا عبء الاعتماد على مواردها الخاصة ، وتنفيذاً لتلك الغاية تحول السكان المدنيون إلى جند من المليشيا المرابطين ، الذين كان يقوى من أزرهم فى البداية فصائل الجند النظاميين البيزنطية، ولكنهم أصبحوا فيما بعد يؤخذون بأجمعهم من مصادر وطنية بحتة . وكان يلى الإكسارخ — الأدواق (Duces) الذين يهيمنون على الأقسام الجديدة التي كان يتجمع تحتها بقايا إيطاليا الإمبراطورية ، ثم « القواد » العسكريون (Tribuni) الذين نحت إمرتهم حاميات المدن . وكانوا يحتفظون بالجيش عند النقاط الاستراتيجية مثل : رافنا وروما وناپولى وكالابريا ، على حين أن أساطيل رافنا وصقلية كانت تضمن المواصلات بحرا . فأما على البر ، فإن الشريان الرئيسى للدفاع الذى أصبح عسيراً بسبب الظروف الجغرافية ، هو الطريق الذى يربط رافنا بروما ، وأقيم لحراسة هذا الطريق بعناية تامة خط من القلاع ، وقوة خاصة أنزلت فى بيروجيا لتتحكم فى التقاطعات الموجودة بين ممرات جبال الإبينين .

وسارت المركزية إلى أبعد من ذلك . فبذلت جهود جبارة لكي تتمثل إيطاليا من كل النواحي فى ولايات الإمبراطورية الأخرى . ونيطت الإدارة بموظفين من اليونان ، واستخدمت مناهج العمل والأساليب اليومية اليونانية . وأنعم بالانقلاب البيزنطية على أعضاء الأرستقراطية الإيطالية ، فإذا أثبتت الأيام ولاءهم وولت إليهم وظائف تنفيذية . وشرعت جموع غفيرة من التجار الشرقيين

والصناع والحجاج والقسوس والرهبان تنتجه إلى إيطاليا . وأخذت الآداب والسياب البيزنطية تنتشر بين الطبقات العليا . فإن جريجوري أسقف تور (Tours) يصف نبلاء الرومان الذين رأهم يرتدون ثيابا من حرير مرصعة بالجواهر ، هذا إلى أن فيسفا رافنا يحدثنا بنفس القصة . ومما يشهد بمحاكاة مافي القسطنطينية وجود الحصيان بالبندقية وتحديد أقسام خاصة بالنساء في المنازل بها ، كما أن أردية الأرجوان التي يرتديها أدواج البندقية في الحفلات الرسمية تذكرنا بأصلها البيزنطي . وكان القديسون والشهداء الشرقيون يلقون في كنائس إيطاليا اهتماماً خاصاً في ذلك الأوان . ومن أمثلة ذلك شيوخ الأشياء التي كانت تنسج للقديس ميخائيل والقديس ثيودوروس والقديسين كوزمارس وداميان ، على حين أن الشعائر والفنون البيزنطية كانت تستخدم بوفرة في العماير والصلوات الكنسية . ومن الأساقفة والبابوات المعروفين أيضاً من يحملون أسماء يونانية ، وشاع من جديد استعمال اللغة اليونانية في روما . وكان الدوق (Dux) الروماني بقصره المطل على البالاتين والممثل للإكسارخ ولمولاه الإمبراطور عن طريق ذلك الإكسارخ ، يسيطر على المدينة بجنده البيزنطية . وكان بكل مدينة كبيرة حتى يوناني ، كان على استعداد تام لمؤازرة أية إجراءات تتخذها السلطة المركزية لإلزام السكان الإيطاليين بالطاعة . وأعجب شيء في ذلك الزمان إعادة فتح جنوب إيطاليا أمام لغة بلاد اليونان وآدابها ونظمها مثلما فتحتها الهلنستية القديمة قبل ذلك بخمسة عشر قرناً—وتواصلت هذه العملية حتى القرن الحادي عشر وظلت حية حتى في عهد ملوك النورمان ولا تزال بعض آثارها موجودة إلى يومنا هذا .

الحركة الانفصالية الإيطالية

وعلى الرغم من هذا التنظيم الاستقصائي الدقيق كانت قوة بيزنطة في إيطاليا تعتمد على أسس غير ثابتة . وقد ظهر أن اللومبارد كانوا هم السبب المباشر في تقوض سلطانها ، ولكن النظم نفسها كانت تحتوي بذور فناءها . فالواقع أن اكتمال عملية المركزية أسهم في ظهور قوى محلية برزت حينما تحلى ضعف السلطة المركزية . ذلك أن اليونانيين لم يتلقوا مطلقاً — حتى يوم جاءوا لإتقاذ إيطاليا من القوط الشرقيين — التأييد القلبي من السكان ، كما أن جشع الموظفين البيزنطيين وابتزازهم أموال الناس لم يزدحم إلا مقتاً في أعين الشعب . وقد زادت الخصومات السياسية من تأجيج الخصومة بين الغرب والشرق التي زادت أوارها اشتداد التعارض بين مصالح الطرفين . وجعل حكام بيزنطة راءدhem الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية مهما كان الثمن ، لذلك دأبوا في أثناء تلك القرون على بذل جهود متواصلة في سبيل فرض ما استطاعوا فرضه من توفيقات وتساهلات في الشئون الدينية ، وهي سياسة أثارت ألد العداء في إيطاليا الكاثوليكية ، التي لم تكن تأبه كثيراً بمشاكل السياسة والتدبير التي تواجه الإمبراطورية . وأخيراً كانت نفس نزعات التفكك ، التي ظلت إبان القرون الثلاثة الأخيرة مصاحبة لتمزق الإمبراطورية الرومانية إن لم تكن السبب الفعلي لذلك ، قد أخذت تشتد وقتذاك وتتفاقم بحكم احتياجات الزمان ، التي جعلت الاعتبار العسكرية في الأهمية الأولى . لقد انهارت الحياة في المدينة القديمة وانهارت معها الطبقات الوسطى تحت ويلات الغزو والدمار الاقتصادي التي أنتجتها تلك العوامل . وقديماً قصر الجهاز الضخم الذي اصطنعه دقلديانوس وقسطنطين الطبقات الدنيا على طوائف وطبقات حرفية تعمل في خدمة الدولة . أما الطبقة العليا فإنها سيطرت على هذا الجهاز لمصلحتها ، كما أن إفلاس الدولة

زادهم قوة . وتولى كبار أرباب الأملاك جميع الاختصاصات المحلية وجباية الضرائب . وأصبحوا مسئولين عن صفار الفلاحين الذين يخشون في ضياعهم . وعندما أصبحت إيطاليا معسكراً مسلحاً ، وأضحى كل مواطن جندياً ، صار من الطبيعي أن ينتقل التنظيم العسكري إلى قبضة هؤلاء النبلاء . فصار مالك الأرض قائماً لأتباعه ، مثلما كان التريبيون قائماً لكتائب المدن . وعندما غلب المنصر الإيطالي على طبقة الجند ، نظرا للافتقار إلى الأمداد البيزنطية ، صار لازماً أن تنمو الروح الوطنية المحلية ، وبلغت العملية نهايتها بنوبان الفروق رويدا بين الموظفين البيزنطيين وبين الأرستقراطية الإيطالية ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين حاولوا أن يزيدوا من قوتهم باقتناء الضياع في إيطاليا ، واستطاعت الأرستقراطية الحصول على المكانة الرسمية والامتيازات الاجتماعية بوساطة الألقاب البيزنطية والمناصب التنفيذية ، وهكذا نشأ مع اضطلال السلطة المركزية نظام إقطاعي ، أحل محل الجهاز الإمبراطوري عددا من الحكومات المحلية .

ممتلكات الهابا

أما الوظائف الباقية للسلطة المركزية فقد ملأها الكنيسة ، التي كان نمو قوتها الزمنية آخر العوامل الكبيرة في تكوين إيطاليا المعصور الوسطى قبل عهد شرلمان . فإن قانون ثيودوسيوس ومن بعده القرار التنظيمي (Pragmatic Sanction) لم يخول لسلم الوظائف الكنسية امتيازات خاصة فحسب ، بل منحها أيضاً قدرا كبيرا من السلطان السياسي ، ولا سيما في مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (التريون) والأسقف أخذوا عند ذاك يتقاسمان معظم ما كان لموظفي المدن من حقوق وواجبات ، وزاد في سلطان الكنيسة مالها من مكانة باعتبارها أكبر مالك للأراضي بإيطاليا . كان الأسقف

هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبذا ينام به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها . واخضعت الكنيسة منذ زمن طويل بالنظر فى شئون البر والإحسان والمستشفيات ، بل إنها استطاعت بفضل ما كان لها من نظام فائق ، ومكانة أدبية ، أن تجعل لنفسها فى أمور القضاء والضرائب ، مكانة مرموقة فى نظام الحكم الإمبراطورى .

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط متانة مركز إيرادات كرسى روما ، بل وزودها أيضاً بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا . إذ كان للكنيسة منذ عهد قسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد دائم بسبب وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشرف روما . وثم سبب آخر ، يتمثل فى تزايد الميل العام عند صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية مالك قوى ، وبذلك كان الملاك الأحرار يصبحون فى كثير من الأحيان مجرد مستأجرين للأرض مدى الحياة مقابل ما يجتنونه من ميزات الأرض والطمأنينة .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير التى كتبت عند نهاية القرن السادس بمعلومات قيمة عما اشتهرت به روما من الكفاية والدقة فى إدارة أوقافها ؛ وهى تظهرنا كذلك على الدور الذى لعبه جريجورى نفسه فى تنمية الموارد المادية للكنيسة . وقد بذل جريجورى فيما وجهه من تعليمات إلى قسس الأبرشيات ، وهم موظفون كنسيون كانوا يجمعون فى عملهم بين واجبات حكم الأقاليم والقضاة والموكلين بالصدقات فى مناطقهم الخاصة ، بذل اهتماماً كبيراً بأدق تفاصيل تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض . ومنها تنبئ أن السروج يحصل عليها من كامبانيا وعروق الخشب من بروتيوم لتستخدمها كنيسة روما . أما صقلية التى تقع بها أغنى

الأوقاف وأوسعها مساحة ، فكان يرد منها مقادير ضخمة من القمح تفي بتموين روما نفسها — وفي ذلك دلالة على ما حدث من إحلال النشاط الكفسي مكان الحكومة الإمبراطورية في عاصمة الإمبراطورية السابقة (روما) — وكانت الإيرادات الضخمة التي يحصل عليها بهذه الطريقة تستخدم في وجوه شتى : — مثل افتداء الأسرى وتخفيف ضائقات المجاعة وصيانة المستشفيات والإفناق عليها وإعانة مختلف الكنائس التي تعرضت لغارات وتخريب القومبارد . وأخيراً يبدو أن البابوية لم تكن ترضى بالألطف والرشى السنوية على معيار ملكي سخى إلى مختلف الموظفين البيزنطيين الذين يعتبر تعاونهم مع روما أمراً ضرورياً ، وذلك فضلاً عن الأموال المستخدمة فيما يتخذ بطريق غير مباشر من ديبلوماسية . وإن هذه الرسائل تلقي ضوءاً كبيراً على علاقات جريجورى بالهيئات الإدارية الإمبراطورية ، وهي مملوءة باللاتهامات المكتوبة بعبارة صريحة ، حول ما يرتكب في حق الناس من سلب وظلم . ومن الواضح أن جريجورى كان يتحدث بوصفه شخصاً مسئولاً ، وهو شديد الأمل في أن تحذيراته لن تذهب سدى . وإن جريجورى — وقد سبقه في منصبه وخلفه عليه أجباز خاملون — ليملاً إلى حد ما المنزلة التي قدر للبابوية أن تحتلها إبان القرون التالية . كان رئيساً لمنظمة مركزية قوية (البابوية) والحكم المطلق في كل الأمور المتصلة بالعدالة ، وقد تسلح بمفاتيح الحل والإبرام التي اختص بها بطرس الرسول — في السماء والأرض ، وبما كان لروما من مجد غابر ، لذا كانت له شخصية فوق شخصية البشر ، لم يكن الإمبراطور إزاءها في نظر سكان إيطاليا المعذبين ، سوى سيد بعيد الدار ، ولم يكن إلا كسارخ إلا مجرد قائد ضعيف أو حاكم ظالم .

على أنه ينبغي لنا أن نؤكد أن أهم ما استندت إليه هذه السلطة ، ما كان لجريجورى من هيبة شخصية وسلطان أدبي ، لا إلى ما كان تحت تصرفه من

قوة مادية . وقد اضطرته الظروف أن يعتمد بلا كل على أفانين الديبلوماسية وأب يعتمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والائتلافات ؛ لكي يجابه المارضة الكثيرة التي كانت تلقاها مدعيات الكرسي البابوي . إذ حدث حتى في داخل حدود إيطاليا وإستريا ، أن كبار رؤساء الأساقفة في الشمال بميلان وأكويليا ورافنا — رفضوا قبول سيطرة روما ، ومع أن الانشقاق قد التأم أخيراً ، فإنهم حافظوا على نزعتهم الاستقلالية بما تلقوه من التشجيع سرا من قبل بيزنطة ، التي رحبت بكل ما يُعوق ازدياد نفوذ البابوية .

على أن أهداف جريجورى تجاوزت حدود إيطاليا ، فقد اتخذ الموظفين الذين يعينهم للإشراف على ضياع الكنيسة بإيطاليا وغيرها من الأماكن ، من رجال الديبلوماسية ورجال المخابرات ، استطاع بفضلهم أن يتصل بجميع القوى الحاكمة في الغرب علمانية كانت أوا كايروسية . ولم يتردد في أن يطلب من حكومة السلطة الإمبراطورية أن تساعد في إلزام أساقفة إلديرية بالطاعة ، وفي قمع حركة الدوناتيين والوثنيين في إفريقية ، على الرغم من أنه لم يحرز في ذلك نجاحاً تاماً . وفي أسبانيا حيث اعتنق القوط الغربيون المذهب الكاثوليكي حديثاً ، بادر جريجورى إلى توثيق علاقاته مع البيت المالكي فضلاً عن هيئة الكنيسة الجديدة . وبذل في فرنسا محاولة جريئة ولكنّها غير مثمرة ، كما يمارس عن طريق القاصد الرسولي البابوي بمدينة آرس ما كان يدعيه منذ زمن طويل أساقفة روما من سلطة على الكنيسة القومية هناك . والمراسلات المتبادلة بين جريجورى وبين مجموعة متنوعة من ملوك الفرنجة ، لاسيما برانهيلا السيء السمعة ، تحض هؤلاء على القضاء على السمعانية^(١) وغيرها

(١) السمعية Simony : هي الاتجار في المقدسات والمصاغة في الرتب والوظائف

الدينية . [المترجم]

من الأعمال القبيحة بالكنيسة ، وتدل على معرفته الوثيقة بالأحوال السائدة في سائر الأبروشيات ، فضلاً عن إلمامه بالأحداث السياسية . على أن دعلوى البابا لقيت الاحترام ، وإن لم تظفر بالرضى والقبول . وذلك لأن الميروفنچيين لم يميلوا إلى التنازل عن المزايا التي حققوها من السيطرة على الكنيسة ؛ ولكن النفوذ الشخصي لجريجورى كان معترفاً به في كل أرجاء فرنسا ، وثمة امتداد آخر لنشاطه يتجلى في بعثة أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترا ، تلك البعثة التي قدر أن تكون لها عواقب بالغة الأهمية .

وفي تلك الأثناء أصر الكرسي البابوي بروما أن تبقى له الصدارة ، رغم ما تعرض له من اعتداءات الكنيسة الشرقية ، بعد أن استمرت على طول الزمن خصومة مريرة مع أسقف القسطنطينية ، الذي كان يدعى — بوصفه مطراناً لعاصمة الإمبراطورية — بأن له الحق أن يتخذ لقب البطريرك المسكوني (Oecumenical) . ومما زاد في توتر العلاقات مع بيزنطة تنافر نظريات كل من البابوية والإمبراطورية . فعند جريجورى ، أن البابا فوق الوالي (الإكسارخ) ، وأن الكنيسة فوق الدولة ؛ على أن خلفاء جستنيان من الناحية الأخرى ، كانوا يرون أن الولاية الإيطالية ، شأنها شأن جميع أجزاء الإمبراطورية الأخرى ، لابد أن تخضع للإمبراطور ومروسيه ، وذلك لأن « الدولة لا تقع في داخل الكنيسة ، بل إن الكنيسة هي التي في داخل الدولة » . ولما كان جريجورى مقتنعاً أن الطريق الوحيد إلى الجنة لمن دعوا إلى صراطها المستقيم ونزلها الكريم ، إنما هو الكهنوت أو الرهبنة ، فإنه رأى أن مرسوم الإمبراطور موريقيوس الذي يحظر على موظفيه المدنيين أو جنده السيامة قسيسين أو تبتل رهباناً ، جريمة لابد من سؤاله عليها ساعة هول الحساب في يوم القيامة . ولا مراء أن أسقف بيزنطة التي يقيم بمنطقة أقرب إلى الحدود الشرقية وهو بالتبعية أشد إدراكاً للخطر البالغ المهدق بالإمبراطورية وحاجتها الماسة إلى

كل جندي وشاب يصلح للجنديّة لو أريد للحضارة النجاة من التدمير ، —
كان أحسن تفهماً للوضع من جريجورى . والواقع أن العلاقات بين القسطنطينية
وروما قطعت فعلاً في فترة من الفترات : كما أن الفرع الشديد الذى قابل به
جريجورى اغتيال مورقيوس يظهر عمق اعتقاده بأن مصلحة الكنيسة قد عرضتها
سياسة الإمبراطور الراحل لأشد المخاطر . ومع ذلك لم يخطر ببالي احتمال
الانفصال عن بيزنطة ، والواقع أن الموقف بإيطاليا كان يحول دون ذلك .
فإن العدو كان على الأبواب ، ومع أن جريجورى لم يقدر الصعوبات التى كانت
تواجهه الوالى (الإكسارخ) ، فإنه كان يدرك تماماً قيمة حمايته له ، وضرورة
التعاون لمناهضة اللومبارد — وإن كانت الإيماءات التى صدرت حتى في هذا
المقام نفسه لإرهاصاً بمجرى السياسة البابوية مستقبلاً .

جريجورى الكبير

الواقع أن ما اتصف به جريجورى من سمات خلقية هيأه لمعالجة هذا
الوضع الغريب المحيط به . كان بحكم مولده نبيلاً رومانياً وشغل منصب والى
المدينة قبل دخوله أحد الأديرة البندكتية . وعين فيما بعد قاصداً رسولياً للبابا
بالقسطنطينية ، فحظى بفرض مراقبة السياسة الدبلوماسية الإمبراطورية ،
وكانت المدينة لا تزال بعد مركزاً للسياسة الأوربية . وليس في نواحي نشاط
جريجورى ما هو أنصع من تلك الواقعة المستشفة التى يفسر بها مجرى الأحداث
بكل من الإمبراطورية البيزنطية والممالك المتبربرة ، بل إنه يحولها في الوقت
المناسب لخدمة الكنيسة . فلما ولى البابوية في زمن كانت فيه إيطاليا بأكملها
في حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، ألقى نفسه على رأس النظام الثابت الوحيد
في عالم مزعزع متغير . وكان كل ما يحيط به يعزز التعاليم التى تلقاها في أثناء
تدريبه القانوني والإداري : ولم يكن بوسع الكنيسة أن تتم على أكل وجه

رسالتها عن الخلاص الروحي إلا باستخدام الوسائل المادية . ولهذا ازداد الاهتمام بالمبادئ العملية المتعلقة بالندم (التوبة) والمطهر وبما لبذل الصدقات للكنيسة من قدرة على التكفير عن الخطايا . ومن المفارقات أن أشخاصاً من التوافه مثل برانهيلدا بفرنسا وفوقاس في بيزنطة ممن تلوث أرواحهم جرائم عديدة قبيحة الشناعة — يتلقون التحيات بوصفهم نصراء للكنيسة ، وما ذلك إلا لأن السلطة المدنية مستقرة في أيديهم ، ولا يتأني تنفيذ العدل إلا عن طريقهم . وتنجلى واقعية جريجورى أيضاً في إهماله للإسلوب الأدبي ، وللتربية الكلاسيكية بل الهجاء السليم . وإياه يظهر الكراهية لأية دراسات متعمقة قد تتعوق مصلحة الكنيسة أو توجد روحاً تنطوى على النقد لها ، وهي التي تقوم قوتها الحقة في طاعة الناس لها الطاعة المطلقة . وقد اعترف جريجورى علناً بجهله باللغة اليونانية . ومن العجيب أن دراينته بتاريخ الكنيسة ضئيلة ، وأشهر ما أنتجه في تاريخها ، شرحه لسفر أيوب ، بما حوى من تأويلات شاذة ، وبما حفل من تخيلات رمزية ملتوية . ومن أكبر الأدلة على ما حدث من تدلى مبادئ الثقافة منذ أيام بوثنوس وكاسيودوراس ، أن شهرة جريجورى في المصور الوسطى إنما تعتمد أساساً إلى جانب مؤلفه عن قاعدة راعي الكنيسة (Pastoral Rule) على إلمامه بالاعتقادات^(١) .

على أننا لا نزال على عتبات المصور الوسطى . ولم يكن جريجورى إلا آخر شخصية كبيرة في فترة الانتقال بالغرب . ولم يتوافر الدليل على أنه كان يدرك ما سوف تسلكه البابوية من الطرق الجديدة . إذ كان حسبه أن يعالج كل أزمة متى طرأت رغبة في المحافظة على العقيدة الكاثوليكية من التعرض للخطر

(١) هذا الكتاب المعروف باسم (Liber Regulare Pastoral) هو اقصى ألفه جريجورى حوالى سنة ٥٩١ ، وهو يتناول التعاليم اللازمة للأسقف في حياته الكنسية ، نظراً لما للأسقف من مكانة باعتباره مرشداً وداعياً للناس . (المترجم)

أو الوقوع في الخطأ ، وحرصاً منه على وقاية سكان إيطاليا المعذبين ، وأن يحافظ فوق كل شيء على سلامة سلطات أسقف روما (البابا) وامتيازاته . فهو أشبه بشخصية جانوس^(١) ذي الوجهين ؛ ينيء أحدهما (في أعين المتأخرين على الأقل) بما حدث فيما بعد من تسلط البابا على الغرب وبما كان للكنيسة من سلطة زمنية ، وبما اتسم به الفكر في العصور الوسطى من مزيج عجيب من الصفة القانونية ومن مذهب التصوف . أما المظهر الآخر ، فيدل على ما حدث من تحول أكبر نبلاء الرومان إلى أساقفة ، قادوا في غالة وإفريقية وإيطاليا وبين أنقاض الإمبراطورية وخرائبها الأتباع ، فاستماتوا في قتال مع السيل الجارف من غزو البرابرة ولم يرجع ما أحرزوه من انتصار إلى ما تحت تصرفهم من القوة المادية ، بقدر ما ترتب على ما أظهره أعداؤهم راضعين من الاحترام والتبجيل نحو قوة الخلق ونبالتها ، ونحو سحر حضارة قديمة .

ويعلن شاهد قبره أن جريجورى : « ولى الله » وأنه سياسى روماني وآخر عترته .

خلفاء جستنيان

ولقد أوردت جستنيان خلفاءه إمبراطورية مثقلة بالديون ، منقسمة على نفسها بالخصومات الدينية يتولى حكمها طبقة من الموظفين بلغت من الفساد وابتزاز الأموال ما لم تبلغه حكومة من قبل ، ويتكفل بحمايتها جيش ، لم يكن من وفرة العدد ما يكفى لدفع الأخطار التي تهدد أطراف الإمبراطورية . وزاد سوء تفاقماً أن جستين الثانى حاز مع هذا الإرث المخرب (Damnosa hereditas) ما يضارع إن لم يفتق ، ما حازه جستنيان من الأفكار الإمبريالية

(١) جانوس : إله روماني يعتبر راعياً لابتداء اليوم أو المهر أو السنة . وتمثله الفنون ذا وجهين ينظران في اتجاهين متعاكسين . [المترجم]

التي حفزته للتوسع . فإن ما فرضه على الآفار والفرس من طلبات وقحة ، لم تساندها قوة عسكرية أو مالية ، لم تكن تنتهى إلا بالانسحاب المهين أو ما هو شر منه مما قد ينشب من حروب مدمرة . وعلى الرغم من رغبة كسرى فى السلام ، فإن چستين أجج نار الحرب مع الإمبراطورية الفارسية (ولم يكن يعوز القوم مبرر للحرب *Casus belli* على تلك الحدود الطويلة) ، وسرعان ما أعقب النجاح المؤقت الذى أحرزته الجيوش الرومانية سقوط دارا (٥٧٣) ذلك السقوط السكارث ، وهى من أهم نقط الدفاع على خط حدود أرض الجزيرة . وترتب على ذلك أن اكتمل ما اشتهر به چستين من جنون العظمة فأضحى جنوناً كاملاً . وخلفه فى العرش تيبريوس وهو جندى كفء ، فبدأ عهداً جديداً لسياسة أكثر تناسباً مع الموقف .

وأدرك تيبريوس مركز الإمبراطورية الحرج ، قهيات نفسه لتتنازل عن بعض الأراضي للآفار النازلين بمنطقة الدانوب ، ولم يحرص إلا على الاحتفاظ بسرميوم لما لموقعها من أهمية جوهريّة . ولكن الأمور سارت أشواطاً بعيدة جداً حتى اضطر قبل موته بزمان قصير أن يسلم القلعة العظيمة لخاقان الآفار ، على حين انهزم فيضان من مغيرة الصقالبة على شمال بلاد اليونان . فكان الإجراء الذى اتخذته تيبريوس كان توقفاً لجري الأحداث فى المستقبل . إذ تحتم على بيزنطة بعد أن فصلتها عن غرب أوربا كتلة صلبة من البرابرة ، أن تركز اهتمامها منذ تلك اللحظة على ولاياتها الآسيوية ، وأن ترسم سياسة محددة تقوم على الوفاق فى الأمور الدينية وتخفيف وطأة الشدائد المالية ، حتى يطمئن رعاياها الذين استبدت بهم الحيرة والتردد . وفى الحين نفسه ، استمرت الحرب مع فارس على الرغم من كل الجهود التى بذلت لإيقاف فارها ، وراحت تبحر ساقبها ببطء شديد ، جالبة على الإمبراطورية الدمار دون أن تنتهى إلى نتيجة حاسمة حتى عهد موريقيوس الذى خلف تيبريوس فى (٥٨٢) . وحانت

فرصة سعيدة لوضع حد لها في (٥٩١) ، عندما اضطر حاكم فارسى جديد تولى الملك بثورة في القصر ، أن يلتمس العون من الروم ^(١) ليثبت أقدامه في عرشه . وكان السلم هو الشرط الذى فرضه موريقيوس ثمناً لإيقاف الحرب ، وعلى الفور بدأت الجيوش البيزنطية حركة انتقال نحو الغرب بقصد استرداد تخوم الدانوب . وبدا الحظ كأنما أخذ يتحول إلى صف الإمبراطورية ؛ لولا أن ألم به انقلاب آخر قدر له أن يهبط به على الفور إلى أوهد حضيض . ذلك أن موريقيوس وقد اشتد به الشوق إلى مواصلة ظفره على الآثار ، أبى أن يسمح لجنده بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء . فتمرد الجند عليه على الدانوب . ونادوا بفوقاس — وهو قائد مئة غير متعلم — إمبراطوراً للبلاد ، وزحف العصاة من ثم على القسطنطينية . وكانت إجراءات موريقيوس الشديدة نفرت منه قلوب الناس عامة ، ولم يجد فوقاس أدنى صعوبة في دخول المدينة . وتلى تنويجه منبجة عامة في البيت المالك السابق .

وعندئذ ارتفعت قبضة موريقيوس القوية ، ولاح شبح الفوضى من جديد في ظل حكم خلفه المجرد من كل هدف . وإذا بالنزاع يشتد بين أحزاب السرك بالمدن الكبرى ؛ وأخذ اضطهاد أصحاب مذهب وحدة الطبيعة واليهود الذى صدر به أمر صريح من فوقاس ، يعجل بتنفيذ الولايات الشرقية منه وانسلاخها عن الدولة ، على حين راحت الجيوش الفارسية تتقدم باطراد على خط الحدود بأكله من أرمينية إلى فلسطين . حتى بلغت في (٦٠٨) مدينة خلقدونية التى تواجه القسطنطينية من وراء شقة البحر الضيقة . وأخذ الطاعون يفتك بالناس في العاصمة ، وأخذت قلة الطعام تزيد في شقاء السكان ألوانا . وبلغ الأمر أن الخضر أنفسهم ، وهم حزب الإمبراطور ، أخذوا ينددون به في

(١) الروم هو الاسم الذى يطلقه العرب والقرآن الكريم على الدولة البيزنطية . (المترجم)

السرك ، ويقاومون قواده ، وترتب على ذلك أن تقرر حرمانهم من الحقوق السياسية .

وجاء الخلاص من حيث لم يتوقع أحد . فإن هرقل كان يحكم وقتذاك فيما يبدو إفريقية ، التي لعلها كانت أكثر ممتلكات الإمبراطورية ازدهاراً ، وهو قائد اشتهر بالذكاء وبالتوفيق في تجاربه . فراسله نبلاء القسطنطينية الساخطون على إمبراطورهم ، فقبل آخر الأمر أن ينفذ حملة تتولى تنصيب ابنه واسمه هرقل أيضاً على العرش الإمبراطوري . وفي (٦١٠) أقلمت العمارة البحرية من قرطاجنة ، وعندئذ ظهر في الأمور جو جديد ، قوامه ما اقترنت به الحملة من روح مقاومة جديدة ، وما احتشد من السفن ذات الأبراج ، وصورة العنداء التي أقامها قائد الأسطول في رأس سارية سفينته ، تلك الصورة « التي لم تصنعها يد إنسان » . ولم تعد المدينة المظلة على البسفور « السُرة » الحلقة لعالم البحر المتوسط . إذ ضاقت رقعتها فلم تتجاوز المناطق المحيطة بها : آسيا الصغرى وتراقيا ومقدونيا . أما أسبانيا فقد طردت الحاميات الإمبراطورية . وأخذت سلطة بيزنطة في إيطاليا تتضاءل باستمرار ، إزاء ما حدث من نمو وتطور التنظيم اللومباردي والبابوي . ولم تعد بدالماتيا بعد (٦٠٤) أية جند رومانية . خاصة وقد دق الغزو الصقلي إسفيناً بين الشرق والغرب ، سيما وأن الفتق كان يزداد على الأيام اتساعاً . وهنا أخذت دول البلقان تظهر إلى الوجود رويداً رويداً . فالآن تتلفت الإمبراطورية نحو الشرق ، وتتركز قواتها على الجبهة الفارسية .

الإمبراطور هرقل

ولم يلق هرقل مشقة كبيرة في خلع فوقاس الطاغية المكروه ، الذي لم يلبث أن لقي مصرعه عقب سقوطه . ولكن ذلك لم يكن إلا بداية عمل هرقل .

ولم يكن بد من انقضاء اثنتى عشرة سنة قبل أن تتمكن الإمبراطورية من استرداد قواها بالدرجة الكافية التى تمكنها من القيام بعمليات عدوانية من أى حجم على أعدائها الشرقيين . إذ لم يكن بد من إعادة النظام إلى نصابه مثل إصلاح الموارد المالية للدولة ، ومثل تهدئة الصراعات الدينية بين الولايات ، قبل أن يستطيع هرقل تخلص القسطنطينية من التهديد المزدوج من قبل الآفار والفرس ورد الولايات إلى الإمبراطورية . وفى الحين نفسه تواصل تقدم الفرس . فسقطت دمشق فى (٦١٤) ؛ ولم تلبث بيت المقدس ذاتها أن سقطت بعد ذلك بقليل ، وأن حمل الصليب المقدس — وهو أقدس آثار المسيحية — إلى بلاد فارس . وعندئذ أصبحت مصر إمالة فارسية مدة عشر سنوات ، وبذلك فقدت بيزنطة مواردها الثمينة فى المواد الغذائية . وليت الأمر اقتصر على ذلك ، إذ خبأت الأيام ما هو أسوأ ، إذ إن القوات الفارسية تقدمت للمرة الثانية مخترقة آسيا الصغرى ، وأقامت معسكرها عند خلقدونية ، وأخذت نواحي المدينة من وراء مياه البوسفور ، على حين حدث فى الحين نفسه فى ناحية البر الأوربي من المدينة أن الآفار هبطوا عليها بقواتهم ونهبوا ضواحيها الشمالية . واستبد البأس بهرقل ففكر فعلا فى نقل عاصمة الإمبراطورية إلى قرطاجنة ، لكى يبدأ بها بداية جديدة فى بيئة جديدة ، ليس للسوابق فيها أدنى وزن . على أن الفكرة الرائعة لم تتحقق ، ولكن مجرد دورانها بخلافه يدل على عبقرية صاحبها ، وهى أصالة أوحى بالحل الذى وفق إليه أخيرا .

كان هرقل أحرز الكثير عند (٦٢٢) . فإن التدقيق وحسن الاختيار فى المناصب الهامة أحاط الإمبراطور برجال من أفراد أسرته أو من التابعين المأمنين . وأفضى الاقتصاد فى الشئون الإدارية وإعادة تنظيم من بيده من جند إلى إرجاع الجهاز الإمبراطورى سيرته الأولى من النظام العامل . ولكن الخلاف الدينى كان ينطوى على مشكلة أعقد وأعند . فلم يكن التسامح الدينى

كافياً في حد ذاته، وذلك لأن التسامح في تلك العصور، كان من الضروري فرضه بالقوة الجبرية. واستطاع الإمبراطور أن يجد صيغة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية بين الكاثوليك والمونوفيزيتيين، غير أن ما بذله هرقل من جهود، اقتضت زمناً طويلاً لاجل الناس على قبولها، لم يلق إلا الفشل السريع. على أن جميع من بالعاصمة واجهوا الخطر المشترك برأى واحد، فأنخذت الحملة الموجهة على فارس صورة الحرب الصليبية. ذلك أن هذا الاتجاه أخذ يستقر ويزداد رسوخاً طوال قرن من الزمان، إذ صارت حروب بيزنطة تتخذ شكل الحرب المقدسة، التي تضطرم دفاعاً عن العقيدة المسيحية، التي كان وجودها مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له بوجود الإمبراطورية الرومانية. وكانت عبقرية هرقل العجيبة داعياً لشحن الشعور الديني لدى رعاياه؛ وعندئذ اجتمعت كلمة الكنيسة والدولة على تزكية ذلك المسعى العظيم. وسمح سرجيوس البطريرك بإقراض نقود الكنيسة كما تستخدم في تمويل العمليات الحربية. فصهرت المواعين المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة لتقدم رصائد مالية إضافية. وأصلحت ذات البين بين الزرق والخضر لهذه البغية، وبلغ الأمر إلى حد أن توزيع الخبز مجاناً - وهو حق العاصمة وامتيازها منذ أيام آل جراكوس - قد أمكن إيقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة.

وكانت خطة هرقل الاستراتيجية بالغة الجرأة. إذ إن القسطنطينية كانت مهددة من جانبيين. فعزم هرقل على أن يؤدي للآفار أتاوة مقابل رحيلهم عن القسطنطينية. وفوق هذا فإنه بدلا من محاولة استرداد ولايتي مصر وسورية المفقودتين منه، صمم أن يضرب فارس في سويداء قلبها، وأن يدفع جميع الشعوب المسيحية التي تقطن بأرمينية وما وراء القوقاز، نحو الجنوب إلى وادي دجلة. وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الجريء في أقل من ست سنوات (٦٢٢ - ٦٢٨). وكان الهدف الرئيسى من الحملة التالية (٦٢٢ - ٦٢٣) (١٠ - العصور)

تخليص آسيا الصغرى . ونزل هرقل بجيوشه في « إيسوس » قرب « البوابات القيليكية » التي يدخل بواسطتها من سورية إلى آسيا الصغرى . ثم تقدم إلى « قبادوقيا وبنطش » ودفع بالجيوش الفارسية من مركزها الذي يتهدده عند خلقدونية ، وهزمها في معركة فاصلة . وشهدت السنتان التاليتان (٦٢٣-٦٢٥) تقدماً آخر . ففيهما احتل هرقل أرمينية وشغل نفسه بتجنيد القبائل الكونخيسية والإيميرية . وقام بغارات ناجحة على المناطق الشمالية . وانصرف إلى تجنيد قبائل كونخيس والسكرج (إبيريا) . وعلى الرغم من الغارات الموقفة التي شنّها على المناطق الشمالية ، فإن الجيوش الفارسية رغم ما تعرضت له من هزائم متكررة ، استطاعت أن توقف كل غزو فعلى .

وكان عام (٦٢٦) نقطة التحول في الحرب . إذ صمم كسرى على حشد قواه جميعاً لسحق ذلك الخصم الخطر . وكانت خطته أن يجعل أحد جيوشه يستوقف هرقل ، بينما يزحف جيش آخر على خلقدونية ويهاجم العاصمة . وفي تلك الأثناء حشد خاقان الآفار جيشاً ضخماً ، استعداداً لمحصنة بيزنطة في نفس الحين من الشمال . وكانت بين الطرفين محادثات مفككة عقدت في مناسبات سالفة . ولكن هذه كانت الحالة الأولى لقيام جهد حق متأزر بين الطرفين ، وكان التهديد المزدوج جارفاً وقوياً . واستمسك هرقل بخطته بشجاعة نادرة . فأرسل إلى القسطنطينية شطراً من قواته ، حيث وكل الدفاع عنها إلى النبيل البطريق بونس والبطريرك سرجيوس . وكلف شطراً آخر بمقاومة قوة الفرس المحدقة بالعاصمة ، على حين تمسك هرقل نفسه بأرمينية ، وواصل استمداداته للهجوم على الأراضي الفارسية . واستمر حصار بيزنطة شهر يوليو بأكمله . وكان الأعداء يشنون في كل يوم هجوماً جديداً على أسوارها ، على حين كانت السفن الصقلية في الميناء تهدد وسائل الدفاع البحري . وامتلأ

السكان بالحماسة الدينية فقاوموا مقاومة المستنئس . وتأزر الأعداء وشنوا هجوماً متكاثراً فصدده السكان منزلين بهم خسائر فادحة ؛ وذلك أنهم اكتشفوا الخطة قبل تنفيذها ، فخادعوا الصقالبة حتى أوقعوا الكثيرين منهم في أسر السفن الرومانية ، ودب الرعب في الأفار لما حل بقواتهم من كوارث ، فانسحبوا من الحصار . وفي تلك الأثناء انهزم الجيش الفارسي الآخر ، بينما أوشك هرقل على الفراغ من إتمام استعداداته . فوجه هرقل ضربته القاصمة في أواخر السنة التالية ، إذ هبط إلى وادي دجلة ، وشتت شمل آخر جيش لدى الفرس ، ففر نحو الجنوب مضطرب النظام ، ثم استولى على قصر كسرى ، وهو على مسافة سبعين ميلاً من شمال العاصمة ، وبذلك انتهت مقاومة الفرس . وعندئذ شقت الجيوش عصا الطاعة وخلع كسرى عن عرشه ، ولقي مصرعه بعد تعذيب طويل ، وعقد ابنه صلحاً مع هرقل ، وبذلك انتهت الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية إلى الأبد . وبمقتضى شروط الاتفاق استردت روما كل ما فقدت من أقاليم ، وعاد إليها جميع من بيد فارس من أسرى . على أن أبرز رمزاً للنصر كان عودة الصليب المقدس الذي كان له دور بارز ضخم في مواكب السرور التي حيت هرقل عند عودته إلى القسطنطينية . لقد تسير القديم والجديد جنباً إلى جنب في هذا الحفل الختامى لعالم زائل . على أن انتصار الإمبراطور الروماني الذي حياه شعبه باسم سكيبيون^(١) ، اختم في كاتدرائية القديسة صوفيا ، حيث رفع البطريرك الأثر المقدس للصليب عاليًا ليبارك الإمبراطور المسيحي ، رأس الكنيسة والمدافع عن المدينة المقدسة .

وكان ذلك الحفل البهيج احتفاءً بما أصاب مجد روما وهبتها من انتعاش

(١) سكيبيون هو بطل الحرب البونية الثانية . انظر للترجم المجلد الثاني (ط ٢) من

« معالم تاريخ الإنسانية » تأليف د . ج . ولز (المترجم)

حقيق رائع . فى الشمال والغرب ازداد تداعى سيطرة الآفار بعد الصدمة التى نالتهم أمام أسوار بيزنطة ، وانقلب الصقالبة والبلغار على الآفار وسيادتهم ، وشهدت السنوات القليلة التالية قيام أول دولة صقلبية فى مورافيا ، ولم يلبث أن تلاها إنشاء إمارة كرواتية مستقلة فى دالماتيا . وفى الشرق حيث كانت الإمبراطورية الفارسية عدو روما التقليدى قد تلقت أثقل ضربة وجهها إليها إمبراطور رومانى ، فانزع منها كل ما ملكته حديثا ، وانفرست بأرضها فى ثنايا ذلك بذور حرب أهلية دأمة . وللمرة الثانية زعمت حضارة البحر المتوسط لنفسها انتماء سكان آسيا الصغرى وسورية ومصر إليها . وبذا تمت كتابة الفصل الأخير من التاريخ اليونانى الرومانى .

والواقع أن ذلك كان آخر نصر أحرزه العالم القديم . فالدولتان الفارسية والرومانية اللتان ظلتا تتقاتلان زمناً طويلاً ، أصابهما الدمار بعد هذا الصراع الأخير الذى أودى بهما . ورقدت ولاياتهما الضعيفة النازفة والناثرة المتمردة مفتحة الفجاج للفتح الإسلامى ، الذى قدر له أن ينبجس من الصحارى العربية فى بضع سنين . ومن وراء حاجز دول الملقان التى أخذت تنضم بعضها إلى بعض بسرعة فائقة — كانت أوروبا الغربية تتشكل أشكالا جديدة ، ولن يفوتنا أن نميز جيدا دلائل نمو الإقطاع بإيطاليا وفرنسا ، كما أنه لن يعوزنا أن ندرك علائم اتساع قوة البابوية مستقبلا . وقد حمل مبشرو روما رسالتها إلى أقصى الغرب ، وأخذت إنجلترة تدخل فى دين المسيح رويداً رويداً . ومن بين أنقاض الفوضى الناجمة عن الحروب والغزوات ، شرع عالم أوروبا العصور الوسطى يتخذ شكله ويتجمع فى مادته .